اخلاق القرآن ج ٦

موسوعة

أخلاق القرآن

الجزء السادس

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص. ب ٦٥٨٥

الطبعـة الاولى

١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبائه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين .

وأستفتح بالذي هو خير :

« رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ » .

قبس من كتاب الله

« وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خَاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذابَها كانَ غراماً ، إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً ، وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً » .

(سورة الفرقان)

تصدير

هذا هو الجزء السادس من كتابي « أخلاق القرآن » ، وقد عشت سنوات وسنوات ، أعد منه كل شهر فصلا عن خلق من أخلاق القرآن العظيم ، واني لأرجع الآن بالذكرى الى بداية هذا العمل الموصول الاسباب برحاب الله وكتابه ، فأرى سعة الفرق بين ما افتتحت من بداية ، وما انتهى اليه الحاضر من غاية ، فاعتبر واتعظ ، وافهم بما يشبه المشاهدة أن الخطوة الاولى غالبا ما تكون قصيرة محدودة ، ولكن روح الامل والرجاء تمد عبدالله بفيض موصول من فضل خالقه ، فاذ الخطوات تتوالى ، حتى يتكون منها مسيرة طويلة ممدودة .

والبحر قد كان في أول أمره جدولا ، ثم صار بحرا زخارا تتلاطم أمواجه ، والبدر كان أول أمره هلالا ، ثم اكتمل بدرا عند منتصف الشهر.

والامر هنا يحتاج الى الايمان ، والعمل مع الامل ، والثقة بفضل الله الذي لا يحد ولا يعد ، والله على كل شيء قدير ، والله يختص برحمته من يشاء ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم .

الهي ، لا تحرمني في هذا العمل نعمة الابتغاء به لوجهك ، ولا تحرمني شرف الانتساب الى خدمة كتابك ، ووفقني دائما أن أجعله سميري

وأميري وظهيري :

« إِنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ المُؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبيراً » .

الهي ، كما وفقتني وأعنتني ــ وأنت صاحب المنــة أولا وأخــيرا ــ فكتبت ما كتبت عن أخلاق القرآن الكريم ، التي تصوِّر فضائل الاسلام العظيم ، ويزدان بها هدى رسولك عليه الصلاة والتسليم ، أسألك التوفيق والعون على التحلي بأخلاق القرآن ، وفضائل الاسلام ، وهدى النبي عليه الصلاة والسلام .

أبو حازم
أحمد الشرباصي

التبصر

البصر هو حاسة الرؤية ، وقيل ان البصر هو النور الذي تدرك به العين المبصرات . وبصر القلب نظره وخاطره . والبصر نفاذ في القلـب ، والبصير هو الرجل العالم بالاشياء ، والبصيرة هي قوة القلب المدركـة ، وقيل هي اسم لعقيدة القلب ، أي لما يُعتقد في القلب من الدين وتحقيق الامر ، وفلان بصيرة على القوم : أي رقيب وشاهد . ويقال : أما لك بصيرة في هذا ؟ أي عبرة . ومنه قول قُس بن ساعدة :

في الـذاهبـين الاولـين ... من القـرون لنـا بصـائر

وتبصرت الشيء أي رمقته . وأبصر الرجل اذا خرج من الكفـر الى بصيرة الايمان .

وتبصر الرجل في رأيه واستبصر : تبين ما يأتيه من خـير وشـر . والتبصر أو الاستبصار في الشيء : هو التمهل والاناة في تبين الامـور وكشفها ، والسير في علاجها على بصيرة ورشد ، واتزان وفطنة ، وادراك لمرامي الامور وغاياتها القريبة والبعيدة ، وفي التبصـر ملاحظـة ودقـة استنباط . وقد ورد في الحكمة : عمى الأبصار أهون من عمى البصائر .

والتبصر بهذا المعنى خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة مـن

فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدى النبي عليه الصلاة والتسليم ، والمراد بهذا الخلق في هذا المجال التربوي الأخلاقي هو أن يكون الانسان صاحب تفكر وتدبر ، وأهل رزانة وتمهل ، وأن لا تغره المظاهر ، بل يحاول أن يستبطن حقائق الامور . ويستدل بالعلامات والاشارات على النتائج والغايات ، فيكون له من ذلك مرشد يهديه ، وقائد يقود قلبه وعقله الى سواء السبيل .

وقد وردت الكلمة بهذا المعنى في قول الله تبارك وتعالى في سورة «ق» :

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » (١) .

أي علامة ودلالة . والله جل جلاله من أسمائه الحسنى : « البصير » كما يقول تعالى في سورة البقرة :

« وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ » (٢) .

أي لا تخفى عليه خافية من أمرهم . وقد تكرر ذكر هذا الاسم في السورة نفسها في قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٣) .

أي لا يخفى عليه منه شيء لأنه سبحانه لا يغيب عنه ما تطويه السرائر أو الضمائر .

---

(١) سورة ق ، الآية ٨ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٩٦ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٠ .

ومما يذكر بهذه الفضيلة القرآنية الاسلامية قولــه عــز شأنــه في سورة الانعام :

« قَدْ جاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » [1] .

[illegible] الحق والهدى ، فآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، فلنفسه [illegible] ولسعادتها ما قدم من الخير وأخر ، ومن عمي عن الحق باعراضه وعدم النظر والاستبصار ، وأصر على ضلاله ، فعــلى نفسه جنى ، وعمى البصائر أدهى من عمى الابصار ، وأسوأ عاقبة في هذه الدار وما بعدهــا من دار القرار .

ويقول الله سبحانه في سورة الاعراف :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ » [2] .

فاذا هم أهل بصيرة وعلم ، وتدبر وتفكر ، لا يقبلون لأنفسهم طاعة الشيطان ، ولا التأثر بوسوسته ، فهم يسارعون الى النظـر والتبصـر ، ويتيقظون لمداخل الشيطان الرجيم لينأوا عنها ويفروا منها ، أو يسدوها عليــه .

والله العليم الحكيم يلفتنا الى أن تدبر القرآن العظيم هو خير مــا يهدي الى التبصر والاستدلال على وجه الحق والخير ، فــلا يلتبس عليــه

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٠٤ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٢٠١ .

رذيلة بفضيلة ، ولا شر بخير . يقول تعالى في سورة الاعراف مشيرا الى القرآن المجيد :

« هَذا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[1].

هذا القرآن الحكيم الذي أوحاه الله تعالى حجج ناهضة واضحة من ربكم ، تجعل الذي يتأملها ويعقلها ويتبصر فيها ، بصير العقل ، متألق الذهن ، فيهتدي الى الطريق القويم ، لأن هذه الآيات تدل على الحق .

ويعود القرآن الكريم الى التحريض على فضيلة التبصر ، عن طريق ضرب الامثال الواعظة المعلمة ، فيقول في سورة فاطر :

« وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ ، وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ ، ولا الظِّلُّ وَلا الحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ ولا الأَمْواتُ » [2] .

قال أهل التفسير : هذا مثل ضربه الله سبحانه ، فالمؤمن بصير في دين الله ، متبصر لأمره ، وهذا الكافر أعمى يخبط خبط عشواء ، كما لا يستوي الظل ولا الحرور ، ولا الاحياء ولا الاموات ، فكذلك لا يستوي هذا المؤمن الذي يبصر دينه ، ولا هذا الاعمى ، كما في قوله تعالى :

« أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ في النَّاسِ » [3] .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٢٠٣ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ١٩ ـ ٢٢ .
(٣) سورة الانعام ، الآية ١٢٢ .

فقد جعل المؤمن حيا متبصرا ، وجعل الكافر ميتا ضال القلب .

وقد أكد الله جل جلاله هذا المثل في سورة الانعام فقال :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَفلا تَتَفَكَّرُونَ » [1] .

والمعنى كما يقول أهل التفسير : قل يا أيها النبي لهؤلاء الضالين المشركين : هل يستوي أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذي أدعوكم اليه ، فلا يميز بين التوحيد والشرك ، ويتصرف بضلال وجهالة ، وصاحب البصيرة المهتدي الى الحق ، المستقيم في مسيرته عليه ، المتبصر في أموره على بينة وبرهان ، مما يجعل القلب يرى أوضح من رؤية العين، فكما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان ، لا يستوي صاحب القلب الاعمى وصاحب القلب البصير .

وكم من رجل يكون أعمى العينين ، ولكن قلبه مبصر ، فهو به من أعلم العلماء وأهدى الفضلاء ، وكم من بصير العينين وبصره فيهما حديد ، ولكنه أعمى القلب فهو أضل من الانعام والبهائم ، ولذلك قال القرآن مقرعا لهم : « أفلا تتفكرون » : أفلا تتفكرون في ذلك فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الاسلام ، وتعقل حجة الرسالة الاسلامية بما في هذا القرآن من أنواع الهداية والعرفان .

وقد تكررت دعوة أصحاب العقول النيرة والقلوب الحية الى التبصر والاعتبار ، فقال تبارك وتعالى في سورة آل عمران :

« إنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولي الأَبْصارِ » [2] .

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٥٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣ .

أي لأصحاب الابصار الصحيحة التي استخدمت فيما خُلقت لأجله، من التأمل في الامور بقصد الاستفادة منها ، وقيل ان الابصار هنا بمعنى البصائر والعقول ، ولذلك قيل ان المعنى في قوله تعالى في سورة الحشر :

« فَاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبْصارِ » [1] .

هو : اتعظوا يا أصحاب العقول والالباب .

والتبصر فضيلة تحلّى بها الانبياء ، وعلى رأسهم امامهم محمد ، عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فالله تعالى يقول له في سورة يوسف : «قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » : أي أدعو الى طريق ربي على معرفة وعلم ، وتحقق وتبصر .

والقرآن الكريم يذكر الانسان بأن تبصره لفائدته ومصلحته ، لأنه سيكون حجة على نفسه ، فاذا لم يثمر التبصر عنده استقامة وهداية انتهى الى شر المعاطب ، يقول القرآن في سورة القيامة :

« بَلِ الإِنسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَى مَعاذِيرَهُ »[2].

وينفر القرآن تنفيرا رادعا من ترك التبصر في الامور والتدبر للاشياء ، فيقول في سورة الأعراف :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بها ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بها ، أُولَئِكَ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ

(١) سورة الحشر ، الآية ٢ .
(٢) سورة القيامة ، الآية ١٤ .

أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الغافِلُونَ » (١) .

أي لقد خلقنا كثيرا من أهل النار لهم قلوب لا يعقلون بها شيئا ، ولهم أبصار لا يتبصرون بها ، وأسماع لا ينصتون بها ، وهم لا يتوجهون الى التأمل والتفكر فيما يشاهدون من آيات الله تبارك وتعالى ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله ، ومن أخبار التاريخ الدالة على سنن الله عز وجل في خلقه ، ليهتدوا الى السعادة في الدنيا والآخرة ، نتيجة لتبصرهم وتدبرهم .

ويقول القرآن عن المشركين :

« وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلى الهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ » (٢) .

أي ان الذين حرمهم الله تعالى نعمة التبصر في الامور يصيرون كالعميان لا ينتفعون بأبصارهم ، ولو أنهم تبصروا بقلوبهم وتعقلوا ببصائرهم ، لما ضرهم فقدان البصر ، وفي هذا المجال يوضح « تفسير المنار » المراد من النص الكريم بما صورته تقريبا : إن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الضالين من المشركين ، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين ، الى طريق الله ودينه وتوحيده، لا يسمعوا دعاءكم بفهم أو اعتبار، ولا يتحركون الى نظر أو استبصار ، وتراهم أيها النبي ، ينظرون اليك شاخصين ، دون أن يبصروا ما آتاك الله من سمت الجلال والوقار الذي يمتاز به صاحب البصيرة بين أهل الجد والصدق والحق ، والتاريخ يروي أن بعض ذوي الفطرة السليمة ينظر الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيعرف من

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٧٩ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ١٩٨ .

شمائله وأخلاقه وسيماه في وجهه ، أنه صادق غير مخادع ، ويقول : والله ما هذا بوجه كاذب .

والعادة قد جرت بأن أهل البصيرة والتبصر يعرف بعضهم بعضا ، والحديث النبوي يقول : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

يقول التفسير : بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلى عقائل قريش فضائل محمد بن عبدالله قبل بعثته ، فاستمالته وخطبته لنفسها ، مع غناها وفقره ، وقد رفضت من قبل كبراء من قريش خطبوها بعد وفاة زوجها الاول ، وكانت أول من صدق برسالته عندما حدثها بنزول الوحي عليه ، وكذلك كان أبو بكر الصديق أول رجل استجاب لدعاء الرسول له الى الاسلام ، وذلك بحسن فراسته فيه ، فلم يتوقف ولم يتريث ، بل سارع الى اجابة الدعوة منشرح الصدر قرير العين لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا اليها .

وأوضح الامثلة على ذلك في عصرنا تعلق الامام محمد عبده بالسيد جمال الدين الافغاني ، من أول ليلة رآه فيها ، ولازمه الى أن خرج من هذه الديار ، فلم يعرفه حق المعرفة غير الاستاذ الامام ، مع كثرة المكبرين له والمعجبين به .

ونأتي الى الصوفية لنجدهم يتحدثون عن التبصر على طريقتهم الخاصة بهم ، فيتعرض القشيري في « لطائف الاشارات » لقول الله تبارك وتعالى :

« وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلى الهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ » [1] .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٩٨ .

فيقول تفسيرا للنص الالهي الكريم على طريقته : « شاهدوه بأبصارهم ، لكنهم حجبوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم ، فلم يعتد برؤيتهم . ويقال : رؤية الاكابر ليست بشهود أشخاصهم ، لكنه بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب ، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الايمان » .

ويتعرض لقوله جل ذكره :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ » [1] .

بقوله : « انما يمس المتقين طيف الشيطان في ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسهم طائف الشيطان ، فان الشيطان لا يقرب قلبا في حال شهوده الله ، لأنه ينخنس عند ذلك . ولكن لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، ولكل عابد شدة ، ولكل قاصد فترة. ولكل سائر وقفة ، ولكل عارف حجبة ، قال صلى الله عليه وسلم : « انه ليغان على قلبي فاستغفر الله وأتوب اليه في اليوم مائة مرة » . أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيره . وقال صلى الله عليه وسلم : « الحدة تعتري خيار أمتي » فأخبر أن خيار الامة ــ وان جلّت رتبتهم ــ لا يتخلصون من حدة تعتريهم في بعض أحوالهم ، فتخرجهم عن دوام الحلم » .

وحينما تعرض الصوفية على طريقتهم لقوله تعالى في سورة آل عمران :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولي الأَبْصَارِ » [2] .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٢٠١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣ .

قالوا : اذا أصابت الغشاوة بصيرة قوم لم تنفعهم قوة أبصارهم ، واذا فتح أسرار آخرين لم يضرهم فقدان أبصارهم .

وحينما تعرضوا لقول الله تعالى في سورة الانعام :

« قَدْ جَاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » [1] .

قالوا : أوضح الله البيان وألاح الدليل ، وأزاح العلل ، وأنار السبيل ، ولكن قيل :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... اذا استوت عنده الأنوار والظلم

فلنسأل الله جل جلاله أن يحفظنا من الغفلة ، وأن يرزقنا نعمة الاعتبار وأن يجعلنا بفضيلة التبصر والاستبصار ، انه المنعم الوهاب .

* * *

(1) سورة الانعام ، الآية ١٠٤ .

التنفل

تقول لغة العرب ان النفل هو الغنيمة والتطوع والهبة ، والنفل هو الزيادة على الواجب ، ويقال له النافلة ، والنفل هو التفضل والتبرع ، ونفل نفلا أعطى نافلة من المعروف ، والنافلة العطية ، ورجل كثير النـــوافل أي العطايا ، والنوفل هو كثير العطاء ، والنوفل هو البحر ، وكل عطية تبرع بها معطيها من صدقة أو عمل خير فهي نافلة ، والنافلة ما تفعله مما لم يجب عليك ، ومنه نافلة الصلاة ، وسميت صلاة التطوع نافلة لأنها زيادة أجر لهم على ما كتب لهم من ثواب ما فرض عليهم ، ومنه قول الله تعالى :

« فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ » [1] .

والمراد بالنوافل جميع ما يندب من الاقوال والافعال .

والتنفل بمعناه العام فيه روح المبادرة الى عمل الخير ، والازدياد من البر ، والتبرع بصنع الجميل ، حتى ولو لم يكن مفروضا ولا واجبا ، وهو بهذا المفهوم خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجزء من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٧٩ .

وقد جاء ذكر النافلة والتنفل في قول الله تبارك وتعالى في سورة الاسراء :

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً »[1] .

وقد أطال المفسرون حديثهم حول هذه الآية الكريمة ، وقالوا : ان معناها العام هو : قم بالليل وتهجد بالقرآن الكريم ، والتهجد السهر ، أو التيقظ بعد رقدة ، وصار اسما للصلاة ، لأنه ينتبه لها ، فالتهجد القيام من النوم الى الصلاة .

جاء في تفسير القرطبي : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أيحسب أحدكم اذا قام من الليل كله أنه قد تهجد ، انما التهجد الصلاة بعد رقدة ، ثم الصلاة بعد رقدة ، ثم الصلاة بعد رقدة . ويسمى من قام الى الصلاة متهجدا .

نافلة لك : أي عطية لك ، وكرامة لك . وقيام الليل تطوع ، والامر بالتنفل جاء على جهة الندب . والمقام المحمود المذكور في ختام الآية : هو الشفاعة للناس يوم القيامة . وقد جاء في صحيح البخاري أن الناس يصيرون يوم القيامة جماعات ، كل أمة تتبع نبيها ، أقول : يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود . وفي صحيح مسلم أن الرسول قال : « اذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم الى بعض ، فيأتون آدم فيقولون له : اشفع لذريتك . فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بابراهيم عليه السلام فانه خليل الله ، فيأتون ابراهيم فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى فانه كليم

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٧٩ .

الله ، فيؤتى موسى فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فانه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأوتى فأقول : أنا لها ... » .

وقال بعض العلماء : لرسول الله عليه الصلاة والسلام ثلاث شفاعات: الشفاعة العامة ، وشفاعة في السبق الى الجنة ، وشفاعة لاهل الكبائر . وقال بعضهم : الشفاعات يوم القيامة خمس للرسول صلى الله عليه وسلم: الشفاعة العامة ، والثانية في ادخال قوم الجنة دون حساب والثالثة في قوم من موحدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع فيهم ، ومن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة ، والرابعة فيمن دخل النار من المذنبين ، فيخرجون بشفاعة النبي وغيره من الانبياء والملائكة واخوانهم المؤمنين ، والخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لاهلها وترفيعها .

وهناك قول آخر في معنى المقام المحمود ، وهو اعطاء النبي لواء الحمد ، كما روى الترمذي أن النبي قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ الا تحت لوائي » .

وينبغي أن نلاحظ اتصال التنفل وقيام الليل بالمقام المحمود ، لأن هذا القيام هو سبب الوصول الى هذا المقام ، وقد تحدث العلماء عن كون القيام بالليل ـ وهو نوع من التنفل ـ سببا للمقام المحمود ، فقيل ان الباري تعالى يجعل ما شاء من فعله سببا لفضله ، من غير معرفة بوجه الحكمة فيه ، أو بمعرفة وجه الحكمة .

وقيل ان قيام الليل فيه الخلوة مع الباريء ، والمفاجأة دون الناس ، فأعطى الخلوة به ، ومناجاته في قيامه نعمة المقام المحمود ، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلهم درجة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ،

فان الله يعطيه ما لا يعطيه لاحد ، ويجعله يشفع ما لا يشفع لاحد .

وقد تعرض ابن الجوزي في تفسيره « زاد المسير » لمعنى هذه الآية الكريمة فذكر أن النافلة في اللغة ما كان زائدا على الاصل ، وذكر في معنى هذه الزيادة في حق النبي قولين : أحدهما أنها زائدة على الفرض ، عليه ، فيكون المعنى : فريضة عليك ، وكان قد فرض عليه قيام الليل .

والثاني أنها زائدة على الفرض ، فهي تطوع وفضيلة ، وذلك أنه قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما زاد على فرضه فهو نافلة له وفضيلة . وذكر بعض العلماء أن صلاة الليل كانت فرضا عليه في الابتداء، ثم رخص له في تركها ، فصارت نافلة . وذكر ابن الانباري أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان اذا تنفل لا يقدر له ان يكون بذلك ماحيا للذنوب ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره اذا تنفل كان راجيا ، ومقدرا محو السيئات عنه بالتنفل ، فالنافلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على الحاجة ، وهي لغيره مفتقر اليها ، ومأمول بها دفع المكروه ، وقيل ان النافلة للنبي وأمته ، والمعنى : ومن الليل فتهجدوا به نافلة لكم . فخوطب النبي بخطاب أمته .

وجاء في تفسير « ظلال القرآن » هذه السطور عن الآية : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » والتهجد الصلاة بعد نومة أول الليل ، والضمير في به عائد على القرآن ، لأنه روح الصلاة وقوامها .

« عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » بهذه الصلاة ، وبهذا القرآن والتهجد به ، وبهذه الصلة الدائمة بالله ، فهذا هو الطريق المؤدي الى المقام المحمود . واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ، ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به ، وهو المصطفى المختار ، فما أحوج الآخرين الى هذه الوسائل ، لينالوا المقام المأذون لهم به في

درجاتهم ، فهذا هو الطريق ، وهذا هو زاد الطريق » .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة الانبياء :

« وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً ، وَكُلاًّ جَعَلْنا صَالِحِينَ ، وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا ، وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ » (١) .

لقد ترك ابراهيم عليه السلام وطنا واهلا وقوما ــ كما جاء في الظلال ــ فعوضه الله الارض المباركة وطنا خيرا من وطنه ، وعوضه ابنه اسحاق وحفيده يعقوب أهلا خيرا من أهله ، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوما خيرا من قومه ، وجعل من نسله أئمة يهدون الناس بأمر الله ، وأوحى اليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وكانوا طائعين لله عابدين ، فنعم العوض ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لابراهيم ، لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .



وقد أشارت السنة في أكثر من موطن الى مكانة التنفل ومنزلة التطوع ومن ذلك ما رواه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة في الحديث القدسي الذي رواه البخاري ، وفيه يقول :

« من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الي عبدي بشيء

---

(١) سورة الانبياء ، الآية ٧٢ و٧٣

أحب مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وان سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

وظاهر الحديث كما يقول ابن حجر أن محبة الله تعالى للعبد تقع بملازمة العبد التقرب بالنوافل ، وربما قيل : ان الفرائض أحب العبادات المتقرب بها الى الله ، فكيف لا تنتج المحبة ؟.

والجواب أن المراد من النوافل ما كانت حاوية للفرائض مشتملة عليها ومكملة لها ، ويؤيد ذلك أن هناك رواية تقول : « ابن آدم . انك لن تدرك ما عندي الا بأداء ما افترضت عليك » .

وقيل ان معنى الحديث أنه اذا أدى الفرائض ، وداوم على اتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك الى محبة الله تعالى .

وينبغي أن نفهم ان النافلة لا تقدم على الفريضة لأن النافلة انما سميت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة ، فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النافلة ، ومن أدى الفرض وزاد عليه النفل ، وأدام ذلك تحققت منه ارادة التقرب .

والكلام في هذا الحديث القدسي ورد على سبيل التمثيل ، والمعنى كنت سمعه وبصره في ايثاره أمري ، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح ، وهو بكليته مشغول بي ، فلا يصغي بسمعه الا الى ما يرضيني ، ولا يرى ببصره الا ما أمرته به ، أو كنت له في النصرة كسمعه وبصره ، ويده ورجله ، في المعاونة على عدوه .

وقيل ان التقدير : كنت حافظ سمعه الذي يسمع به ، فلا يسمع

الا ما يحل استماعه ، وحافظ بصره كذلك . وقيل ان المعنى أنه لا يسمع الا ذكري ، ولا يلتذ الا بتلاوة كتابي ، ولا يأنس الا بمناجاتي ، ولا ينظر الا في عجائب ملكوتي ، ولا يمد يده الا فيما فيه رضاي ، ورجله كذلك .

وقد جاء في كتابي « أدب الاحاديث القدسية » عبارة عن أنـواع النوافل وفيها : ان من أعظم ما يتقرب به العبد الى ربه من النوافل كثـرة تلاوة القرآن الكريم ، وسماعه القرآن بتفكر وتدبر وفهم ، ولذلك روى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعا : « ما تقرب العبد الى الله تعالى بمثل مـا خرج منه » يعني القرآن .

ومن النوافل أيضـا كثرة ذكر الله تبارك وتعالى بحضور القلب مع النطق باللسان ، ولذلك قال معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يـا رسول الله ، أخبرني بأفضل الاعمال وأقربها الى الله تعالى . فقال النبـي عليه الصلاة والسلام : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » .

ومتى أكثر العبد من فعل الطاعات والبعد عن المخالفات أوجب ذلك له حب الله ، فاذا أحبه رزقه محبته ، فيصير الشخص لا يرى الا الله ، ولا ينطق الا بالله ، أي أن العبد متى اجتهد في الفرائض والنوافل امتلأ قلبه بمعرفة الله تعالى ، ومحبته وعظمته ، وخوفه ومهابته ، واجلاله والانس به، حتى يصير قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة .

ومتى وصل العبد الى هذه المرتبة صار جديرا بأن يجيب الله دعاءه وأن يحقق له رجاءه ، وأن ينصره في مواطن حاجته الى النصر .

هذا ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على التنفـل والنوافل من غير ايجاب ولقد جاء في صحيح الامام البخاري عن عائشة

---

(١) كتابي « أدب الاحاديث القدسية ، صفحة ٢٩٩ ، الطبعة الثانية ، نشر دار الاعتصام سنة ١٣٩٨ هـ » .

رضي الله عنها : ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم .

ولقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يوقظ عليا وفاطمة للتهجد والتنفل بالليل . وقد يعود الى ايقاظهما مرة ثانية .

يقول الطبري : لولا ما علمه النبي صلى الله عليه وسلم من عظم فضل الصلاة في الليل ما كان يزعج ابنته وابن عمه في وقت جعله الله تعالى لخلقه سكنا ، لكنه اختار لهما احراز تلك الفضيلة على الدعة والسكون .

ويروى عن محمد بن ابراهيم قال : رأيت الجنيد في النوم ، فقلت : ما فعل الله بك ؟.

قال : طاحت تلك الاشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا الا ركعات نركعها في الاسحار . أي تهجدا وتنفلا وتطوعا .

نسأل الله جلت قدرته أن يهبنا فضيلة التطوع ومكرمة التنفل ومحمدة التقرب اليه حتى ننال رضاه ورضوانه .

الدعـــاء

الدعاء في اللغة النداء ، والدعاء الرغبة الى الله تعالى فيما عنده من الخير ، والابتهال اليه بالسؤال ودعوته اذا سألته واذا استعنته ، والدعاء العبادة والاستغاثة ، والدعاء الايمان ، والمادة تدل على الخضوع والتضرع الى الله ، وحسن الرجاء فيه ، وصدق الظن فيه ، وانتظـار الخـير عـلى يقين من جهته وفضله . وهو بهذا المعنى خلق من أخلاق القرآن المجيد ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومما يدل على جلال مكانة الدعاء أن الرسول صلى الله عليـه وسلم يقول : « الدعاء مخ العبادة » ويقول أيضا : « ليس شيء أكـرم على الله من الدعاء » .

ولقد قيل لأنس : يا أبا حمزة ، أبلغك أن الدعاء نصف العبـادة ؟. قال : لا ، بل هو العبادة كلها .

ولقد جاء الامر الالهي بالدعاء في مواطن كثيرة من القرآن الحكيم، ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى في سورة غافر :

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِيـنَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِين »[١] .

أي ادعوني واعبدوني وأخلصوا لي العبادة ، أجب دعاءكم ، فأعفو عنكم وارحمكم وأغفر لكم ، ان الذين يتعظمون عن افرادي بالعبادة سيدخلون جهنم صاغرين .

ويقول القرآن في سورة الاعراف :

« قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »[٢] .

ويفسر تفسير المنار هذه الآية بقوله : « ادعوا الله وحده مخلصين له الدين ، بأن لا تخلطوا دعاءكم ولا غيره من عبادتكم له بأقل شائبة من الشرك الاكبر ، وهو التوجه الى غير الله من عباده المكرمين ، كالملائكة والرسل والصالحين ، ولا من الشرك الاصغر وهو الرياء ، وحب اطلاع الناس على عبادتكم ، والثناء عليكم بها ، والتنويه بذكركم فيها .

ويقول القرآن في سورة البقرة :

« وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »[٣] .

وفي تفسير هذه الآية دقيقة من الدقائق تنبغي ملاحظتها ، وهي أن

---

(١) سورة غافر ، الآية ٦٠ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٢٩ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٦ .

القرآن الكريم ذكر مادة « يسألونك » في عدة مواضع ، وبعد ايراد هذه المادة يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتولى الرد على سؤالهم بما يوحيه الله . فالقرآن مثلا يقول في سورة البقرة :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ »[1].

ويقول في السورة نفسها :

« يَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ »[2].

ويقول في السورة نفسها :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ »[3] .

ويقول في السورة نفسها :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أذىً »[4] .

ويقول في سورة الانفال :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ »[5] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢١٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢ .
(٥) سورة الانفال ، الآية الاولى .

وهكذا . وأما حين جاء السؤال في قوله تعالى :

« وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فإِنِّي قرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ » [1] .

فان الله تعالى لم يطلب الى رسوله أن يتولى الاجابة على السؤال كما رأينا في المواطن الاخرى ، بل تولى الله تعالى بذاته القدسية الاجابة على سؤال العباد ، ولعلّ الحكمة في ذلك هي الاشعار بأن من يدعو الله لا يحتاج الى وسيط بينه وبين الله ، فالله سبحانه يجيب الداعي بلا وساطة أو شفيع .

ومما يدل على مكانة الدعاء في حياة المسلم أن الله تبارك وتعالى جعل الدعاء يتكرر في كل صلاة من كل يوم ، ففي فاتحة الكتاب التي يتلوها المسلم في كل ركعة جاء قول الحق سبحانه :

« اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ » [2] .

والدعاء فضيلة من فضائل الانبياء ، وهذا هو شيخهم وامامهم محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام يقول في حديثه الشريف : « أكثر دعائي ودعاء النبيين من قبلي بعرفات : لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

وانما سمي التهليل والتحميد والتمجيد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر : « اذا شغل عبدي ثناؤه عليّ

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٦ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٦ و٧ .

عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » .

وهذا ابراهيم أبو الانبياء يدعو دعاءه الطويل في سورة ابراهيم :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، رَبَّنا إِنِي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيءٍ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ ، الحَمْدُ للهِ الَّذي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ ، ربِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ ، رَبَّنا اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسابُ » [1] .

ومعنى : « ربنا وتقبل دعاء » أي تقبل عملي الذي أعمله لك ، وعبادتي اياك ، فالحديث يقول : « ان الدعاء هو العبادة » .

وهذا نوح نبي الله يذكر القرآن من خصاله أنه كان يدعو ربه ،

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية ٣٥ ــ ٤١ .

فيقول القرآن في سورة القمر :

« فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » [1] .

وهذا زكريا نبي الله يقول داعيا ربه في سورة مريم :

« وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيّاً » [2] .

أي لم أشق يا رب بدعائك ، لأنك لم تخب دعائي من قبل ، اذ كنت أدعوك في حاجتي اليك ، فكنت تجيب وتقضي حاجتي .

ويقول القرآن عن زكريا وزوجته وابنه يحيى :

« إِنَّهُمْ كانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ » [3] .

كانوا يدعوننا رغبا ، أي رغبة منهم فيما يرجون من الله من رحمته وفضله ، رهبا أي رهبة منهم من عذاب الله وعقابه ، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته ، فهم يدعون خوفا وطمعا ، وليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر ، وكانوا متواضعين لله متذللين ، لا يستكبرون عن عبادة ربهم سبحانه .

ويحدثنا القرآن عن طائفة كبيرة من الناس ، يسيئون استعمال الدعاء واستغلاله فهم ، لا يخلصون في الدعاء الا عند الكارثة ، وهم لا يذكرون الله الا عند الغرق ، فاذا أنقذهم الله من المصيبة نسوا ربهم ،

---

(١) سورة القمر ، الآية ١٠ .
(٢) سورة مريم ، الآية ٤ .
(٣) سورة الانبياء ، الآية ٩٠ .

وأغفلوا ذكره ، وما هكذا يكون شأن المؤمن المستقيم . يقول القرآن في سورة لقمان :

« وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » [1] .

اذا غشي هؤلاء موج عظيم هائل كالظلل وهم في وسط البحر ، فزعوا الى الله بالدعاء ، مخلصين له بالطاعة ، لا يشركون به هنالك شيئا ، ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره ، فلما نجاهم الى البر مما كانوا يخافونه في البحر من الغرق والهلاك ، فمنهم مقتصد في قوله واقراره بربه وهو يضمر الكفر ، وما يكفر بأدلتنا وحججنا الا كل غدار جحود النعم كفور .

ويقول القرآن الكريم في سورة يونس :

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » [2] :

أي دعانا في وقت اضطجاعه أو قعوده أو قيامه ، أي لا يفتر في الدعاء ، بل يدعو الله في جميع الاحوال .

ويعلق تفسير « في ظلال القرآن » على هذه الصورة البشرية فيقول:

---

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٢ .
(٢) سورة يونس ، الآية ١٢ .

« انها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور .. وان الانسان ليظل مدفوعا مع تيار الحياة . يخطىء ويذنب ويطغى ويسرف والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس ــ الا من عصم الله ورحم ــ من يتذكر في ابان قوته وقدرته أن هناك ضعفا وأن هناك عجزا . وساعات الرخاء تنسي ، والاحسان بالغنى يطغي .. ثم يمسه الضر فاذا هو جزوع هلوع ، واذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء . فاذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر . انطلق الى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار . والسياق يتسق خطوات التعبير وايقاعه مع الحالة النفسية التي يصورها . والنموذج البشري الذي يعرضه. فيصور منظر الضرفي بطء وتلبث وتطويل : « دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر ، ليصور وقفة هذا الانسان وقد توقف التيار الدافع في جسمه او في ماله أو في قوته كما يتوقف التيار أمام السد ، فيقف أو يرتد ، حتى اذا رفع الحاجز « مرّ » كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق « مر » لا يتوقف ليشكر ، ولا يلتفت ليتدبر ولا يتأمل ليعتبر . « مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه » واندفع مع تيار الحياة دون كابح ولا زاجر ولا مبالاة . وبمثل هذه الطبيعة . طبيعة التذكر فقط عند الضر ، حتى اذا ارتفع انطلق ومرّ ، بمثل هذه الطبيعة استمر المسرفون في اسرافهم ، لا يحسون ما فيه من تجاوز للحدود: « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

ويقول القرآن في سورة يونس أيضا :

« هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ والبَحْرِ حَتَّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ »[1] .

جاء في تفسير « فتح الرحمن » هذه العبارة حول الآية السابقة :
« في هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وان كان كافرا ، وفي هذه الآية بيان ان هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون الى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها ، فيا عجبا لما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات ، فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون ، كما تواتر ذلك الينا تواترا يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ؟ وأين وصل بها أهلها ؟ والى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ، حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع في مثله ، ولا في بعضه من عباد الاصنام ، فانا لله وانا اليه راجعون » .

* * *

وننتقل الى روضة السنة المطهرة لنجد هذا الفيض النبوي الكريم ، من الدعوة الى الحرص على الدعاء ، والنهي عن اغفاله أو نسيانه ، وتطالعنا هذه الاحاديث الشريفة :

١ ـ سلوا الله من فضله ، فان الله يحب أن يسأل من فضله ، وما سئل الله شيئا أحب اليه من العافية .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٢ و٢٣ .

٢ ــ ليسأل أحدكم ربه كل شيء ، حتى شسع نعله اذا انقطع ، فانه ان لم ييسره لم يتيسر .

٣ ــ ان لربكم في أيام دهركم نفحات ، فتعرضوا لنفحاته ، واسألوا الله أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم .

٤ ــ من لم يسأل الله يغضب عليه .

ويشير النبي صلى الله عليه وسلم الى طريقة اجابة الله للدعاء ، « ما من أحد يدعو الله بدعوة الا آتاه الله بها احدى ثلاث : اما أن يعجل له حاجته ، واما أن يعطيه من الخير مثلها ، واما أن يصرف عنه من الشر مثلها .

قالوا : اذن نكثر يا رسول الله .

قال : فالله أكثر .

والدعاء قسمان اضطراري واختياري ، فالاضطراري هو الالتجاء الى القوة الغيبية عند تقطع الاسباب بالانسان ، وسد منافذ الرجاء بالسعي .

يقول السيد رشيد رضا في تصوير فائدة الدعاء الاضطراري : كل مؤمن بقوة غيبية يرى نفسه ملتجئة اليه عند اشتداد البأس ، والخطر المشرف بها على اليأس ، فيدعو صاحب القوة العليا ، ويستغيث به ، وعند ذلك تفتح في وجهه أبواب الرجاء ، وتنزل عليه السكينة بعد الاضطراب ، وهذه فائدة كبرى للدعاء ، تتلوها فوائد ، أظهرها أن اليائس ينقطع عن السعي ، فاذا اشتد به الضيق فربما يبخع نفسه انتحارا بيده ، ولذلك يكثر الانتحار في قوم لا يؤمنون ، فالرجاء الذي يحدثه الالتجاء بالدعاء يعطي المضطر قوة جديدة ، ويهديه الى طرق جديدة يسلكها في اعادة السعي حتى ينجو من الخطر ، أو يبلغ بعض الوطر .

ويتحدث رشيد رضا عن القسم الثاني من الدعاء وهو الاختياري فيذكر أنه من الاعمال التي تزيد في الايمان ، وتدعمه كسائر العبادات المطلوبة في الدين ، وليس أثرا طبيعيا له ، ولولا ذلك لما كان للتكليف به معنى . اذا قال العبد : اللهم وسع عليّ في الرزق ، يتذكر أن سعيه في طلب الرزق من أسبابه التي هداه الله تعالى اليها بالحواس ، والعقل يتوقف على حفظ قواه ، وعلى توفيق الله بين سعيه وبين الاحوال والامور الخارجية التي يتوقف عليها النجاح ، فيزداد ايمانه بهذا الذكر ، ويزداد نشاطه باعتقاده أن الله يعينه ما رعى سننه في خليقته ، وأتى البيوت من أبوابها .

واذا قال : اللهم اغفر لي يتذكر أنه عرضة للهفوات والخطايا ، وأن الغفران الالهي له طريق بيّنها الكتاب العزيز بمثل قوله :

« واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

فان لم يتذكر الآية فانه يتذكر معناها ، الا اذا كان جاهلا بالدين، مكتفيا منه بما يسمعه ممن يعيش بينهم من الجاهلين ، واذا تذكر ان الدين علّم البشر أن للذنوب والخطايا آثارا سيئة في النفس ، وان غفرها ومحوها انما يكون بالرجوع عن الذنب ، وعمل طاعة من جنسه تؤثر في النفس ضد أثره ، فانه يكون قريبا من العمل الصالح . قال تعالى :

« إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ » [1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

وان قال قائل : كيف ندعو الله من أجل أمر هو يعلمه ويحيط به ؟ فان الجواب يمكن أن يؤخذ من مثل قول القائل الحكيم :

---

(١) سورة هود ، الآية ١١٤ .

قـالـوا : أتشـكو اليـه ... مـا ليـس يخفى عليـه ؟
فقلـت ربـي يـرضى ... ذلُّ العبيـد لـديـه



ولفضيلة الدعـاء آداب أجملها الغزالي في « الاحياء » فيما يلي :

١ ــ ترصد الاوقات الشريفة ، كيوم عرفة ويوم الجمعة ، وأيام رمضان ، ووقت السحر .

٢ ــ اغتنام الاحوال الشريفة ، عند اقامة الصلوات ، وعند نزول الغيث ، وعند الزحف للجهاد ، وعند السجود : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا فيه من الدعاء » .

٣ ــ استقبال القبلة .

٤ ــ خفض الصوت ، وجعله بين المخافتة والجهر ، للحـديث القـائل : « يا أيها الناس ان الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب » .

٥ ــ عدم تكلف السجع في الدعاء .

٦ ــ التضرع والخشوع لقوله تعالى :

« ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً » (١) .

٧ ــ أن يجزم بالدعاء ويوقن بالاجابة ويؤكد الرجاء في الله للحـديث القائل : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة » .

٨ ــ الالحاح في الدعاء والتكرار فيه ، وعدم التعجل أو استبطاء الاجابة.

٩ ــ ان يقدم بين يدي الدعاء ذكرا لله وثناء عليه وتسبيحا له .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٥٥ .

١٠ ــ الاقبال على الله تعالى ، والتوبة من الذنوب ، ورد المظالم الى أهلها .

ويصور أدب الدعاء قوله تعالى في سورة الاعراف :

« ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » (١) .

فأشارت الآية الى الضراعة في الدعاء وهي اظهار الضعف والافتقار والتذلل ، وأشارت الى أن الدعاء يكون خفية ، أي في سر واستخفاء .

يقول تفسير المنار : ادعوا ربكم ومدبر أموركم متضرعين مبتهلين اليه تارة ، ومسرين مستخفين تارة أخرى ، أو دعاء تضرع وتذلل وابتهال، ودعاء مناجاة واسرار ووقار ، ولكل من الدعاءين وقت ، وداعية من النفس، فالتضرع بالجهر المعتدل يحسن في حال الخلوة ، والامن من رؤية الناس للداعي ومن سماعهم لصوته ، فلا جهره يؤذيهم ، ولا الفكر فيهم يشغله عن التوجه الى الرب وحده ، أو يفسد عليه دعاءه بحب الرياء والسمعة ، والاسرار يحسن في حال اجتماع الناس في المساجد والمشاعر وغيرها ، الا ما ورد رفع الصوت فيه من الجميع ، كالتلبية في الحج وتكبير العيد ، وهو مشترك لا رياء فيه . ولما كان الليل سترا ولباسا شرع فيه الجهر في قراءة الصلاة ، وهو للمتهجد في خلوته يطرد الوسواس ، ويقاوم فتور النعاس ، ويعين على تدبر القرآن ، وبكاء الخشوع للرحمن .

وقد روي عن الحسن البصري أنه قال : « ان كان الرجل قد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وان كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وان كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٥٥ و٥٦ .

الزوار وما يشعرون به . ولقد أدركنا أقواما ما على الارض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، ان كان الا هسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ادعو ربكم تضرعا وخفية » ، وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال :

« إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً »[1] .

وأشار النص الكريم أن الدعاء يكون خوفا وطمعا . أي ادعوه خائفين من عقابه اياكم على مخالفتكم لشرعه المصلح لأنفسكم ، وطامعين في رحمته واحسانه في الدنيا والآخرة .

والقول الجامع في حال النفس عند الدعاء أن تكون غارقة في الشعور بالعجز والافتقار الى الرب القدير الرحيم ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، يصرف الاسباب ، ويعطي بحساب وبغير حساب ، فان دعاء الرب الكريم بهذا الشعور يقوي أمل النفس ، ويحول بينها وبين اليأس ، عند تقطع الاسباب ، والجهل بوسائل النجاح ــ وكما يضيف رشيد رضا ــ لو لم يكن للدعاء فائدة الا هذا لكفى ، فكيف وهو مخ العبادة ولبابها ، واجابته مرجوة بعد استكمال شروطه وآدابه ، وأولها عدم الاعتداء فيه ، فان لم يكن باعطاء الداعي ما طلبه ، كانت بما يعلم الله أنه خير له منه .

وقد تضمن التراث الاسلامي أدعية مأثورة لمختلف المناسبات ، وكأن الحكمة من هذا أن يصبح الدعاء عند المؤمنين عادة وخلقا وطبيعة ، فجاءت أدعية تقال عند الخروج من المنزل ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، وعند الفراغ من الصلاة ، وعند القيام من المجلس ، وعند دخول السوق،

---

(١) سورة مريم ، الآية ٣ .

وعند رؤية الهلال ، وعند هبوب الريح ، وعند الشروع في أمر ، وعند النظر الى السماء ، وعند النوم ، وعند الاستيقاظ ... وهكذا .

ومن أمثلة هذه الادعية ما كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الفجر وهو : اللهم اني أسألك رحمة من عندك ، تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي ، وتلم بها شعثي ، وترد بها الفتن عني ، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتبيض بها وجهي ، وتلهمني بها رشدي ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم أعطني ايمانا صادقا ، ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة . اللهم اني أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الاعداء ، ومرافقة الانبياء ... الى آخر الحديث .

ومن أمثلة ذلك الدعاء الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها :

« اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب اليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، واستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، واسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقد يقول قائل : اذا كان الله قد قال : « أجيب دعوة الداع اذا دعان » فهل معنى هذا أن الله يجيب كل داع ؟.

ويجيب رشيد رضا : ليس الامر كذلك ، كما هو ثابت بالمشاهدة ،

بل المراد أن من شأنه الاجابة ، فهو يجيب ان شاء كما قال في آية أخرى : « فيكشف ما تدعوه ان شاء » فهو على قولك : فلا يعطي الكثير فاطلب منه ، أي ان من شأنه ذلك ، ولا يلزم منه أن يعطي كل طالب عين ما طلبه.

وأجاب بعضهم بأن الاجابة أعم من اعطاء السؤال . وقد ورد في الحديث الصحيح أن الاجابة تكون باحدى ثلاث : اما أن يعجل له دعوته، واما أن يدخر له ، واما أن يكف عنه من السوء مثلها . والآية سيقت لبيان أن الله تبارك وتعالى قريب من عباده المتوجهين اليه ، فلا حاجة بهم الى الصياح في تكبيره ودعائه ، ولا الى أن يتخذوا وسطاء بينهم وبينه في التوجه اليه ، وسؤال رحمته وفضله ، بل يجب أن يصمدوا اليه وحده ، فانه وحده هو الذي يجيب الدعاء .

ويقول الاستاذ الامام : ان الداعي شخص يطلب شيئا ، وهو يصدق على أكثر الناس الذين يطلبون كل يوم أشياء كثيرة ، وليس كل واحد منهم متحققا بدعاء الله تعالى وحده كما يجب أن يدعى ، فهو يقول : أجيب دعوة الداعي اذا خصني بالدعاء ، والتجأ اليّ التجاء حقيقيا ، بحيث ذهب عن نفسه اليّ ، وشعر قلبه بأنه لا ملجأ له الا اليّ ، ومثل هذا لا يطمع في غير مطمع ، ولا يطلب ما لا يصح أن يُطلب ، وانما يمتثل أمر الله تبارك وتعالى ، باتخاذ جميع الوسائل من طرقها الصحيحة المعروفة ، وهي لا تتحقق الا بالعلم والعزيمة والعمل ، فان تم للعبد ما يريد بذلك فقد أعطاه الله سبحانه من خزائنه التي يفيض منها على جميع متبعي سننه في الخلق، وان بذل جهده ولم يظفر بسؤاله ، فما عليه الا أن يلجأ الى مسبب الاسباب وهادي القلوب الى ما غاب عنها وخفي عليها ، ويطلب المعونة والتوفيق ممن بيده ملكوت كل شيء ، وقد قال بعض السلف : ان هذا مجاب لا محالة.

وقال الصوفية : الدعاء المجاب هو الدعاء بلسان الاستعداد ، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الطمع في غير مطمع . فمن يترك

السعي والكسب ويدعو قائلا : يا رب أعطني ألف جنيه ، فهو غير داع حقيقة ، وانما هو جاهل .

ومثل ذلك المريض لا يراعي الحمية ولا يتخذ الدواء ، ويقول : يا رب اشفني وعافني ، كأنه يقول : اللهم أبطل سننك التي قلت انها لا تبدل ولا تحول ، أبطلها من أجلي .

وكم استجاب الله تبارك وتعالى لنا من دعاء ، وكم كشف عنا من بلاء، ورزقنا من حيث لا نحتسب ولا نتخذ الاسباب ، ولكن بتسخيره هو للاسباب .

ولقد قيل لابراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو الله سبحانه فلا يستجاب لنا ؟.

فقال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه ، وأكلتم نعمة الله فلم تردوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الاموات فلم تعتبروا بهم ، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس .

وثمة سؤال أخير في هذا المجال : ما فائدة الدعاء وقد عرفنا أن القضاء لا مرد له ؟.

ويجيب « الاحياء » للغزالي :

من القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء ، واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات من الارض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء والبلاء

يتعالجان ، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح. وقد قال تعالى في سورة النساء :

« وَخُذُوا حِذْرَكُمْ » [1] .

وأن لا يسقي الارض بعد بث البذر ، فيقال : ان سبق القضاء بالنبات نبت البذر ، وان لم يسبق لم ينبت ، بل ربط الاسباب بالمسببات هو القضاء الاول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب ، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الاسباب على التدريج والتقدير هو القدر ، والذي قدر الخير قدره بسبب ، والذي قدر الشر قدر لدفعه سببا ، فلا تناقض بين هذه الامور عند من انفتحت بصيرته .

والدعاء فيه ذكر الله ، والذكر يستدعي حضور القلب مع الله ، وهو منتهى العبادات ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « الدعاء مخ العبادة » . والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم الى ذكر الله عز وجل الا عند المام حاجة وارهاق ملمة ، فان الانسان اذا مسه الشر فذو دعاء عريض ، فالحاجة تحوج الى الدعاء ، والدعاء يرد القلب الى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة ، فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات ، ولذلك صار البلاء موكلا بالانبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم الاولياء ، ثم الامثل فالامثل ، لأنه يرد القلب الى الافتقار والتضرع الى الله عز وجل، ويمنع من نسيانه ، وأما الغنى فسبب للبطر في غالب الامور : « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ربنا انك سميع الدعاء ، ربنا فتقبل منا الدعاء .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٢ .

الحفظ والمحافظة

تقول اللغة : حفظ المتاع أي حرسه ، وحفظ القرآن استظهره ، أي وعاه عن ظهر قلب ، ورجل حافظ العين أي لا يغلبه النوم ، وحفظ الشيء حفظا رعاه وصانه ، فهو حفيظ وحافظ ، والحفيظ الموكل بالشيء يحفظه، وقد يضمن الحافظ معنى الرقيب المهيمن ، فالله حفيظ على كل شيء أي مهيمن ، واستحفظه مالا أو سرا : استودعه اياه وائتمنه عليه ، والمحافظة على الشيء المواظبة عليه ، مثل : هو محافظ على سُبحَة الضحى . وتحفظ بالشيء عني به ، والطريق الحافظ : الواضح البيّن المستقيم ، والحفاظ : المحافظة على العهد ، وهي أن يحفظ كل واحد الآخر ، والوفاء بالقصد . والتمسك بالود ، والمحافظة : الذب عن المحارم .

وقد ذكر الاصفهاني في المفردات أن « الحفظ تارة يقال لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي اليه الفهم ، وتارة لضبط في النفس ، ويضاده النسيان ، وتارة لاستعمال تلك القوة ، فيقال حفظت كذا حفظا ، ثم يستعمل في كل تفقد وتعهد ورعاية » .

والنسيان هو ضد الحفظ ، وقد ورد في مواطن من القرآن تدل على ذمه أو التنفير منه ، ففي سورة البقرة يقول الله تبارك وتعالى :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ »[1].

وفي سورة المائدة يقول :

« يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ »[2].

وفي سورة يوسف :

« فَأَنْسَاهُ الشَّيطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ »[3].

وفي سورة ص :

« لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الحِسابِ »[4]

وفي سورة المجادلة :

« اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ »[5].

والحفظ أو المحافظة خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم. والحفظ بالمعنى الاخلاقي الاسلامي ، أنواع وألوان ، كل منها له مكانته ومنزلته، فهناك حفظ القرآن وحفظ الدين ، وحفظ الصلاة ، وحفظ الجار، وحفظ الجوارح : كالسمع والبصر، واليد والرجل، وحفظ الفرج، وحفظ

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١٣ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٤٢ .
(٤) سورة ص ، الآية ٢٦ .
(٥) سورة المجادلة ، الآية ١٩ .

العورة ، وغير ذلك من ألوان الحفظ والمحافظة التي سنتعرف اليهـا بعد قليـل

والحفيظ اسم من أسماء الله الحسنى ، بمعنى الذي لا يغرب عنه شيء ، أي مثقال ذرة عن حفظه في السموات ولا في الارض تعالى شأنه ، وهو عز وجل قد حفظ على خلقه وعباده ما يعملون من خير أو شر ، وقد حفظ السماوات والارض بقدرته .

وقد جاء في سورة هود :

« إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ » [1] .

أي قائم ورقيب عليه بالحفظ والبقاء ، على ما اقتضته سننه ، وتعلقت به مشيئته . وفي سورة يوسف :

« فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » [2] .

أي حفظه خير من حفظ غيره . وقد جاء في آية الكرسي من سورة البقرة :

« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ » [3] .

أي لا يثقله حفظ هذه العوالم المبثوثة في السماوات والارض ولا يشق عليه ، وهو العلي العظيم ، فيتعالى بذاته أن يكون شأنه كشأن البشر

---

(١) سورة هود ، الآية ٥٧ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٦٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .

في حفظ أموالهم ، ويتنزه بعظمته عن الاحتيــاج الى من يعلمــه بحقيقــة أحوالهم .

ومما يدل على شرف فضيلة الحفظ والمحافظة أنها مكرمة اعتز بهــا الانبياء عليهم الصلاة والسلام فجاء على لسان يوسف مثلا قوله : « اني حفيظ عليم » أي اني حفيظ للامــانات وأموال الخزائن عليــم بوجــوه التصرف فيها على وجه المصلحة .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة :

« حافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلّهِ قانِتِينَ » (1) .

والمحافظة على الصلاة تعني صونها ورعايتها وحسن ادائها ، وذلــك لا يكون الا بالمحافظة عليها . وقد قال بعض المفسرين في وجه اختيار لفظ المحافظة على الحفظ : ان الصيغة على أصلها تفيد المشاركة في الحفظ، وهي هنا بين العبد وربه ، كأنه قيل : احفظ الصلاة يحفظك الله الذي أمرك بها، كقوله :

« فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » (2) .

أو بين المصلي والصلاة نفسها . أي احفظوها تحفظكم من الفحشاء والمنكر ، بتنزيه نفوسكم عنهما ، ومن البلاء والمحن بتقوية نفوسكم عليهما، كما قال :

« وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ » (3) .

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨ .

(2) سورة البقرة ، الآية ١٥٢ .

(3) سورة البقرة ، الآية ٤٥ .

ويقول القرآن في سورة المؤمنين :

« وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ » [1] .

وفي هذا تنبيه الى أنهم يحفظون الصلاة بمراعاة أوقاتها ، ومراعاة أركانها ، والقيام بها في غاية ما يكون من الطوق ، وأن الصلاة تحفظهم الحفظ الذي نبه عليه القرآن في قوله :

« إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ » [2] .

وقد جاءت هذه الآية ضمن آيات ذكرت في صدر سورة المؤمنون تسرد طائفة من صفات المؤمنين ، ولذلك جاء في تفسير « غرائب القرآن للنيسابوري » هذه العبارة في التعليق على الآية : « الصفة السادسة المحافظة على الصلاة ، كما مر في قوله (حافظوا على الصلوات) وذلك في سورة البقرة ، وصفهم أولا بالخشوع في صلاتهم ، وآخرا بالمداومة عليها، وبمراقبة أعدادها وأوقاتها ، فرائض كانت أو سننا ، رواتب أو غيرها ، فالمحافظة أعم من الخشوع وأشمل ، ومن هنا يعرف فضيلة الصلاة اذا وقع الافتتاح بها والاختتام عليها ، وان اختلف الاعتباران والعبارتان » .

ويقول القرآن في سورة ق :

« هَذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ » [3] .

أي يصون نفسه ويرعاها من أن تقع فيما يعيب ، فهذا الثواب يعد به الله تعالى كل رجّاع الى مولاه بالاعراض عما سواه . والحفيظ هنا هو

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٩ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .
(٣) سورة ق ، الآية ٣٢ .

الحافظ لحدود الله ، أو لاوقات عمره ، أو لما يجده من المقامات والاحوال فلا ينعكس على عقبيه .

وقد أشار القرآن الكريم الى حفظ الفروج ، وهو كناية عن العفة ، وطالب بهذا الحفظ الرجال والنساء ، فقال في سورة النور :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بما يَصْنَعُونَ ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » (١) .

وقد أكد القرآن التوجيه الى هذه الفضيلة حين ساق أوصاف المسلمين والمسلمات في سورة الاحزاب ، وذكر من بينها قوله :

« وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظات » (٢) .

ودعا القرآن الى حفظ الايمان وترك الاستخفاف بها ، فقال في سورة المـائدة :

« واحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ » (٣) .

أي لا تبذلوها في كل أمر ، ولا تكثروا من الايمان الصادقة ، فضلا عن الايمان الكاذبة ، وذلك مثل قوله تعالى :

« وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » (٤) .

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٠ و٣١ .
(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٣٥ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٨٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢٤ .

وقد نوه التنزيل المجيد بالمسلمات القانتات فقال عنهن في سورة النساء :

« فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ » [1] .

أي ان النساء الصالحات راعيات لحقوق الازواج عند غيبتهم بمراعاة ما شرعه الله تبارك وتعالى من الاحكام لحفظ الحدود . وقيل ان المعنى : يحفظن عهد الازواج عند غيبتهم بسبب ان الله تعالى يحفظهن من الانحراف أو الميل ، أو بسبب رعايتهن حق الله تعالى ، لا لرياء أو تصنع منهن .

يقول النيسابوري في ذلك : « وصف الصالحات منهن بأنهن قانتات، مطيعات لله والزوج ، حافظات للغيب قائمات بحقوق الزوج في غيبته ، والغيب خلاف الشهادة ، ومواجب حفظ غيبة الزوج أن تحفظ نفسها عن الزنا ، لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها ، ولئلا يلحق به الولد الحاصل من نطفة غيره ، وان تحفظ أسراره عن الافشاء ، وماله عن الضياع ، ومنزلها عما لا ينبغي شرعا وعرفا .

عن النبي صلى الله عليه وسلم : « خير النساء امرأة ان نظرت اليها سرتك ، وان أمرتها أطاعتك ، وان غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها » وتلا الآية .

فعليهن أن يحفظن حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهن على أزواجهن ، حيث أمرهن بالعدل فيهن بقوله :

« فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » [2] .

فهذا بذاك ، أي هذا في مقابلة ذلك .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .

والمعنى أنهن حافظات للغيب بحفظ الله اياهن ، فانهن لا يتيسر لهن حفظ الغيب الا بتوفيق الله تعالى ، أو بما حفظهن حين وعدهن الثواب العظيم على الامانة ، وأوعدهن العذاب الشديد على الخيانة .

ويقول الامام محمد عبده : الغيب هنا ما يستحى من اظهاره ، أي حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين ، فلا يطلع أحد منهن على شيء مما هو خاص بالزوج .

ويشير تفسير المنار الى أن هذا يشمل كتمان كل ما يكون بينهن وبين أزواجهن في الخلوة ، ولا سيما حديث الرفث ، فما بالك بحفظ العرض ، وقد قيل ان هذه العبارة هي أبلغ ما في القرآن من دقائق كنايات النزاهة ، تقرؤها خرائد العذارى جهرا ، ويفهمن ما تومىء اليه مما يكون سرا ، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق بأطراف أناملها ، فلقلوبهن الامان من تلك الخلجات ، التي تدفع الدم الى الوجنات . ناهيك بوصل حفظ الغيب بما حفظ الله ، فالانتقال السريع من ذكر ذلك الغيب الخفي ، الى ذكر الله الجلي ، يصرف النفس عن التمادي في التفكر فيما يكون وراء الاستار ، من تلك الخفايا والاسرار ، وتشغلها بمراقبته عز وجل .

فهن حافظات للغيب بحفظ الله عز وجل ، أي بالحفظ الذي يؤتيه الله لهن بصلاحهن . فإن المرأة الصالحة يكون لها من مراقبة الله تعالى وتقواه ما يجعلها محفوظة من الخيانة ، قوية على حفظ الامانة ، أو حافظات له بسبب أمر الله بحفظه ، فهن يطعنه ويعصين الهوى .



ومما يزكي حديث الحفظ والمحافظة في المجال الاخلاقي القرآني أن نجد الكتاب المجيد يقول في سورة ق :

« وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ »[1] .

وهو اللوح المحفوظ ، أي حافظ لاعمال العباد ، أو محفوظ لا يضيع، كقوله عز من قائل :

« عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي في كتابٍ لا يَضِلُّ ربِّي وَلا يَنْسَى »[2] .

ويقول التنزيل الحكيم في سورة الانعام :

« وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً »[3] .

أي يرسل عليكم ملائكة مراقبين لكم من حيث لا تشعرون ، يحصون أعمالكم ، ويكتبونها عليكم ، وهم الحافظون الذين أشار اليهم القرآن في سورة الانفطار :

« وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ »[4] .

جاء في تفسير غرائب القرآن : « من جملة قهر الله ارسال الحفظة ، وهي جمع حافظ على عبيده ، بضبط أعمالهم من الطاعات والمعاصي والمباحات ، لأنهم مطلعون على أقوال بني آدم لقوله :

« ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[5] .

(١) سورة ق ، الآية ٤ .
(٢) سورة طه ، الآية ٥٢ .
(٣) سورة الانعام ، الآية ٦١ .
(٤) سورة الانفطار ، الآية ١٠ ـ ١٢ .
(٥) سورة ق ، الآية ١٨ .

وعلى أفعالهم بقوله :

« يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ » [1] .

واما صفات القلوب ـ كالجهل والعلم ـ فليس في الآيات ما يدل على اطلاعهم عليها ، وعن ابن عباس : ان مع كل انسان ملكين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فاذا تكلم الانسان بحسنة كتبها من على اليمين ، واذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار : انتظر لعله يتوب عنها ، فان لم يتب كتب عليه .

قالت العلماء : من فوائد هذه الكتبة ان المكلف اذا علم أن الملائكة الموكلين عليه يكتبون أعماله في صحائف تعرض على رؤوس الاشهاد في مواقف القيامة كان ذلك زجرا له عن القبائح . ومنها أن توزن تلك الصحائف يوم القيامة ، فان وزن الاعمال غير ممكن . ومنها التعبد ، فعلى المكلف أن يؤمن بكل ما ورد به الشرع ، وان لم يعرف وجه الحكمة في بعض ذلك » .

ويقول القرآن الكريم في سورة الرعد :

« لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ » [2] .

ذلك الحفظ عن أمر من الله تعالى ، وقيل ان الكلام فيمن اتخذ لنفسه حرسا يحفظونه بزعمه من قضاء الله عز وجل .

ويقول الحق عز شأنه في سورة المائدة :

---

(١) سورة الانفطار ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ .

« إِنَّا أَنْزَلْنا التَّوْراةَ فيها هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بها النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبارُ بما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ وكانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ » [1] .

أي يحكمون بما أودعه الله عندهم من التوراة ، وائتمنهم عليه ، وطلب منهم بوساطة رسله أن يحفظوه ، ولا يضيعوا منه شيئا ، وكان سلفهم الصالحون رقباء على الكتاب ، وعلى من يريد العبث به ، أو شهداء على أنه شرع الله تبارك وتعالى .



وننتقل من روضة القرآن الكريم الى روضة السنة المطهرة ، لنجد سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ينوه بفضيلة الحفظ ومكرمة المحافظة ، فيقول في حديثه الصحيح :

« احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الاقلام وجفت الصحف».
ويشير الرسول صلى الله عليه وسلم في موطن آخر الى بعض ألوان الحفظ والمحافظة ، فيقول : « الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى (أي البصر والسمع واللسان) والبطن ما حوى (أي الطعوم والفرج) ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا » .

ونوّه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بفضيلة حفظ

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

القرآن فقال : « مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة ، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران » .

ويرشد المصطفى عليه الصلاة والسلام الى الاسباب التي تؤدي بالانسان الى حفظه حقوق الله ، فيحفظه الله جزاء كريما ، فيقول : « اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي ، لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح .

ويرشد الرسول المعلم الى الاتجاه نحو حمى الله ورحمته ، لكي يرجو الانسان من بارئه أن يحفظه ويصونه ، فعلم المسلم هذا الدعاء عند النوم « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها ، لك مماتها ومحياها ، إن أحييتها فاحفظها ، وإن أمتها فاغفر لها » .

أو كما جاء في رواية البخاري : « باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، ان أمسكت نفسي فارحمها ، وان ارسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

فلنسأل الله خير الحافظين وارحم الراحمين أن يحفظنا بحفظه ، وأن يجعلنا بمنه وكرمه ممن يحفظون كل ما أمرهم الله بحفظه ليرضى عنهم ويقبلهم بين عباده الصالحين .

* * *

روح السلام

مادة « السلام » تدل على السلامة والخلاص والنجاة والخلو من العوارض . والقلب السليم . الخالص من دغل الشرك والذنوب . والسلم ــ بالكسر والفتح ــ الامان والنجاة وعدم الحرب . والسلم ــ بفتحتين ــ الصلح والمهادنة ، والخضوع والاستسلام . ويقول الرجل الآخر : بيننا سلام ، أو أمري معك سلام : أي أتركك وتتركني ، فاسلم منك وتسلم مني . والسلام : النجاة والامان من الشرور والآفات . والسلم والسلامة : التعري من الآفات الظاهرة والباطنة ، والسلامة الحقيقية لا تكون الا في الجنة ، اذ فيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وصحة بلا سقم، ولذلك قال عنها القرآن : « لهم دار السلام عند ربهم » أي السلامة .

والاسلام : الدخول في السلم ، وهو أن يسلم كل واحد منهما أن يناله ألم من صاحبه ، وأسلمت أمري الى الله عز وجل أي : فوضته اليه .

والمراد بالسلام في هذا المجال الاخلاقي هو أن تكون روح الانسان صافية مطبوعة على المسالمة والصفاء وحمل مشاعر الخير للناس . وهو بهذا المعنى فضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وخلق من اخلاق القرآن الكريم، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم . وقد تحدث القرآن عن

السلام في أكثر من موطن ومن أمثلة ذلك ما ذكره في سورة البقرة وهو قولـه :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا في السِّلْمِ كافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » (١) .

وكأنه بهذا النص الكريم يريد لنا أن نفهم أن الدخول في رحـاب السلام ينجي الانسان من الضلال باتباع خطوات الشيطان ، وهو أعـدى الاعداء للانسان .

يقول القشيري في هذه الآية : كلف الله المؤمن بأن يسالم كل أحد الا نفسه فانها لا تتحرك الا بمخالفة سيده ، فان من سالم نفسه فتر عـن مجاهداته ، وذلك سبب انقطاع كل قاصـد ، وموجب فترة كل مريـد . وخطوات الشيطان هي ما يوسوسه اليك من عجزك عن القيـام باستيفاء الواجب ، ولا ينبغي أن نلفت اليها .

وقد وجهنا القرآن الى ايثار روح السلام حتى مع الجاهلين ، فقـال تبارك وتعالى في سورة الفرقان في شأن عباد الرحمن :

« وَإِذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً » (٢) .

أي نحن شأننا السلام والمسالمة ونحن نطلب منكم هذه المسألة . كما وجه القرآن الى الاستجابة لروح السلام حتى مع الاعداء فقال في سورة الانفـال :

« وَإِنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ » (٣) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٨ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .
(٣) سورة الانفال ، الآية ٦١ .

كما قال في سورة القصص :

« سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجاهِلِينَ »[1] .

وقال في سورة الزخرف :

« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ »[2] .

ويكفي « السلام » تمجيدا وتشريفا أن جعل الله تبارك وتعالى اسم السلام أحد أسمائه الحسنى ، فقال القرآن في سورة الحشر :

« هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلٰه إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ »[3].

وقد تعددت أقوال العلماء في معنى هذا الاسم الكريم فقيل : معناه ذو السلامة من كل نقيصة وآفة ، فيكون من أسماء التنزيه .

وقيل معناه : مالك تسليم العباد من المهالك فيرجع الى القدرة .

وقيل معناه : ذو السلام على المؤمنين في الجنان .

وقيل معناه : مُسلِّم المسلمين من العذاب .

وقيل معناه : الذي سلم خلقه من ظلمه .

وقيل : الذي يسلم على المصطفين من عباده لقوله تعالى :

« وَسَلامٌ عَلَى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى »[4] .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٥٥ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية ٨٩ .
(٣) سورة الحشر ، الآية ٢٣ .
(٤) سورة النمل ، الآية ٥٩ .

وقد قال تعالى في سورة الانعام :

« وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » (١) .

والتحية المألوفة المعروفة في الاسلام هي « السلام عليكم ورحمة الله » ، وقد حرص الاسلام على الاكثار من ترديد السلام حتى قال رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام : « أفشوا السلام بينكم » . وأطلق الله على جنة النعيم اسم « دار السلام » فقال في سورة الانعام :

« لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ » (٢) .

وقال عنها في سورة يونس :

« وَاللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٣) .

وجعل تحية المؤمنين في الآخرة هي تحية السلام فقال :

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ » (٤) .

وحينما دعا القرآن الى الاحتكام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحدث بينهم ، طالبهم بأن يرتضوا حكمه ويسلموا لهذا الحكم عن انقياد واذعان ، وينفذوا ذلك طوعا ، فقال في سورة النساء :

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٥٤ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ١٢٧ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٢٥ .
(٤) سورة الاحزاب ، الآية ٤٤ .

« فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً »[1] .



ولقد عني رسول الله عليه الصلاة والسلام بأمر السلام ودعا أتباعه أن يستشعروا روح السلام في أنفسهم ، وفي معاملتهم لغيرهم فلا يكون منهم الى الناس أذى أو اعتداء ، فتردد على لسانه الشريف جملة من الاحاديث الشريفة الداعية الى السلام المذكرة به ومنها هذه الاحاديث :

١ ـ السلام من الاسلام .

٢ ـ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

٣ ـ ان السالم من سلم الناس من يده .

٤ ـ أفشوا الاسلام تسلموا .

٥ ـ اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم .

وكان للرسول دعوات ومناجيات لخالقه ومولاه يذكر فيها السلام، وينوه بشأن السلام ، ويدعو فيها الى استشعار روح السلام ، فجاء من دعواته : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام » . قال العلماء : السلام الاول في هذا النص اسم من أسماء الله تعالى . ومنك السلام ، أي منك السلامة من الآفات ، وحيّنا ربنا بالسلام : أي اجعل تحيتنا في وفودنا عليك السلامة من الآفات .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

وكان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعلنا سلما لأوليائك .

وحينما قال الله تعالى في سورة يوسف على لسان الصديق عليه السلام :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ »[1] .

وتكلم المفسرون عن هذه الآية قالوا ان معنى « توفني مسلما » يرمز الى الاستسلام والسلام والسلامة ، فقالوا ان المعنى : اجعلني ممن استسلم لرضاك ، أو اجعلني سالما عن أسر الشيطان حيث قال :

« ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ »[2] .

ولقد تحدث الاستاذ الامام محمد عبده في كتابه « المسلمون والاسلام » عن روح المحبة والسلام في أتباع محمد عليه الصلاة والسلام خلال العصور والقرون فقال هذه العبارة : « غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام ، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجها الجار .. فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل ، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمباشرة ، وعلى الرغم من غفلة المسلمين عن الاسلام ، وخذلانهم له ،

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠١ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٣٩ ــ ٤٠ .

وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم ، لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد ، خصوصا في الصين وفي أفريقيا .. ولم يخل زمن من ظهـور جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها ، ولا داعي أمامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه .

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي ، واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ، ويسر احكامـه ، وعدالـة شريعته وبالجملة لأن فطرة البشر تطلب دينـا وترتاد منـه مـا هو أمس بمصالحها ، وأقرب الى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ... ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا ، والى العقول سبيلا ، وبدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة ، والاوقـات الطـويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لجذب النفوس اليه .

هذا كان حال الاسلام في بساطته الاولى ، وطهارته التي أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض الى اليوم ».

يا أبنـاء الاسلام ، ان ربكم هو السـلام ، وان رسولكم هو نبي السلام ، وان قرآنكم هو كتاب السلام ، وان تحيتكم هي السلام ، وان مسعاكم الى الجنة دار السلام ، وان رسالتكم هي رسالة السلام فأشعروا أنفسكم روح السلام ، ليعمكم ربكم بنعمة السلام .

التمتع بالطيبات

تقول اللغة ان التمتع بالشيء هو الانتفاع به ، والمتوع : الامتداد والارتفاع ، والماتع : الراجح الزائد ، والمتـاع : انتفـاع ممتد الوقت ، واستمتع طلب التمتع ، والمتعة ما يعطى المطلقة لتنتفع به مدة عدتها ، وكل ما تمتعت به من الحوائج فهو متاع .

والتمتع يستتبع التزين ، والاسلام دين لا يحارب التزين أو التمتع، بل يعد ذلك شيئا من فطرة الانسان ، أو يعده غريزة مفيـدة مثمرة ، اذا استقام صاحبها وأخذ منها بالحظ المعقول البصير صار ذلك خلقا يحمـد ولا يعاب ، فهو الى حمى الفضائل أقرب أكثر منه اقترابا من العادات .

والزينة الحقيقية التي يتمتع بها المتخلق البصير هي مـا لا يشـين الانسان في شيء من أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وأما ما يزينـه في شيء من أحواله دون جانب آخر من أحواله فهو زين من وجه ، وشين من وجه آخر ، والزينة قد تكون زينة نفسية كالعلم والاعتقاد الحسن ، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة ، وزينة خارجية كالمال والجاه .

ولقد تحدث تفسير المنار عن غريزة حب الزينة وحب الطيبات فقال : « لقد كانت غريزة حب الزينة ، وغريزة حب الطيبات من الرزق ، سـببا

لتوسع البشر في اعمال الفلاحة والزراعة ، وما يرقيها من فنون الصناعة، وسائر وسائل العمران ، واظهار عجائب علم الله وحكمته وقدرته في العالم ورحمته واحسانه بالخلق .

ولو وقف الانسان عند ما تنبت له الارض من الغذاء لحفظ حياة أفراده الشخصية وبقاء حياته النوعية كسائر أنواع الحيوان ، لما وجد شيء من هذه العلوم والفنون والاعمال . وهل كان ما ذكر في بيان خلقه الاول من أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهيا عنها الا بدافع غريزة كشف المجهول ، والحرص على الوصول الى الممنوع ؟. وهل كان ما ذكر من حرمانهما من الراحة بنعيم الجنة التي يعيشان فيها رغدا بغير عمل ، الا لبيان سنة الله في جعل هذا النوع عالما صناعيا تدفعه الحاجة الى العمل ويدفعه العمل الى العلم ، ويدفعه حب الراحة الى التعب ، ويثمر له التعب الراحة ؟

وقد عرف من اختبار قبائل هذا النوع وشعوبه ، في حالي بداوته وحضارته أنه يتعب ويبذل في سبيل الزينة فوق ما يتعب ويبذل في سبيل ضروريات المعيشة ، وكثيرا ما يفضلها عليها عند التعارض ، فالمرء قد يضيق على نفسه في طعامه وشرابه ليوفر لنفسه ثمنا لثوب فاخر ، يتزين به في الاعياد والمجامع ، وماذا تقول في المرأة وهي أشد حبا للزينة من الرجل ، وقد تؤثرها على جميع اللذات الاخرى ؟. وان توسع الاغنياء في أنواع الزينة التي ينفسون بها على الفقراء هو الذي وسع الطرق لاستفادة هؤلاء من فضل أموال أولئك ، فان الغواصين الذين يستخرجون اللؤلؤ من أعماق البحار ، وعمال الصياغة والحياكة والتطريز والبناء والنقش ، والتصوير وسائر الزينات ، كلهم أو جلهم من الفقراء الذين يتزين الاغنياء بما يعملون لهم ، وهم منه محرومون ، ولكنهم لا يصلون الى ما لا بد لهم منه من معيشة وزينة تليق بهم الا بسبب تنافس الاغنياء فيه .

فحب الزينة أعظم أسباب العمران ، واظهار استعداد الانسان لمعرفة سنن الله وآياته في الاكوان ، فهي غير مذمومة في نفسها ، انما يذم الاسراف فيها ، والغفلة عن شكر المنعم بها ، ومن الاسراف فيها جعلها شاغلة عن عبادة الله تعالى . وعن سائر معالي الامور والكمالات الانسانية، من علمية أو عملية أو اجتماعية ، دنيوية كانت أو أخروية » .

والله تبارك وتعالى يحدثنا عن الزينة ويحببنا فيها عند وجودنا في المواطن المناسبة لها ، ويحثنا على التمتع بالطيبات ، ويقرر أنها من صفات المؤمنين ، ويدعو بني آدم جميعا الى هذا التزين والتمتع فيقول في سورة الاعراف :

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ القِيامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » [1] .

فهو سبحانه وتعالى يحببنا في التزين بالثياب الحسنة والمظهر الجميل، عند دخول المساجد للصلوات ، وفي صلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، ويقول رشيد رضا في ذلك : « التجمل بزينة اللباس اللائق عند الصلاة ـ ولا سيما صلاة الجمعة والجماعة وفي العيدين ـ سنة لا واجب . ولكن اطلاق الامر يدل على وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد ، بحسب عرف الناس في تزينهم المعتدل في المجامع والمحافل ، ليكون المؤمن عند عبادة

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٣١ و٣٢ .

الله تعالى مع عباده المؤمنين في أجمل حالة لائقة بـه لا تكلف فيهـا ولا اسراف ، فمن قدر بلا تكلف على عمامة وازار ورداء ، أو ما في معناها من قلنسوة وجبة وقباء ، لا يكون ممتثلا للامر بالزينة اذا اختصر عـلى ازار يستر العورة فقط للرجل ، وما عدا الوجه والكفين للمرأة ، وان صحت صلاته فان المقام ليس مقام بيان شروط صحة الصلاة ، بل هو أوسع من ذلـك » .

لقد شرع الاسلام كما رأينا التزين للعيدين وليوم الجمعة ولصـلاة الجماعة ، وفي التزين معنى التمتع المباح بالاشياء الطيبة . نعم يكره التزين للمرأة المتوفى عنها زوجها وهي في عدتها ، ويكره لها التبختر والتبـاهي بالتزين .

وفي سورة المائدة يشير الله تبارك وتعالى الى لون من ألوان التمتع حين يقول :

« أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ »[1].

أي متعكم الله به متاعا حسنا ، أو جعله لاجل تمتيعكم به .

وفي سورة هود يقول الحق تبارك وتعالى :

« وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ »[2] .

أي ان تستغفروا ربكم وتتوبوا اليه يمتعكم بكل نافع في المعيشة متاعا حسنا مرضيا ممتدا الى أجل مسمى ، وهو العمر المقدر لكم في علمه.

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٩٦ .
(٢) سورة هود ، الآية ٣ .

وهذا سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يوجهنا الى التمتع الطيب والتزين الحميد فيقول : « اذا صلى احدكم فليلبس ثوبيه فان الله عز وجل أحق من تزين له ، فان لم يكن له ثوبان فليتزر اذا صلى » .

ولقد كان الائمة من سلفنا الصالح يرون من المحمود للانسان ، المعدود في فضائله ومحامده أن يتمتع بالطيبات في غير اسراف ولا خيلاء فلقد كتب يحيى بن يزيد الى مالك بن أنس رضي الله عنهما هذه الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد في الاولين والآخرين من يحيى بن يزيد بن عبد الملك ، الى مالك بن أنس : أما بعد فلقد بلغني أنك تلبس الدقاق (الثياب الرقيقة المحكمة النسج) وتأكل الرقاق (أجود أنواع الخبز) ، وتجلس على الوطيء (الليّن) وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت اليك المطيّ ، وارتحل اليك الناس ، واتخذوك اماما ورضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع . كتبت اليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى ، والسلام » .

فكتب اليه مالك بن أنس يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك بن أنس الى يحيى بن يزيد : سلام الله عليك ، أما بعد فقد وصل اليّ كتابك ، فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والادب . أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، واسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت لي أني آكل الرقاق وألبس الدقاق ، وأحتجب وأجلس على الوطيء ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى ، فقد قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . واني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام » .

ويقول القرآن الكريم في سورة آل عمران :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ »[1] .

وليس المراد ذم هذه الاشياء أو التنفير منها أو النهي عنها ، وانما المراد والله أعلم هو التحذير من أن تجعل غاية الحياة فينشغل الانسان بها انشغالا يصرفه عن واجباته الاخرى نحو الله والناس .

جاء في تفسير المنار : « الكلام في هذه الشهوات بيان لما فطر عليه الناس من حبها وزينه في نفوسهم ، وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها ؛ لا لبيان قبحها في نفسها كما يتوهم الجاهل ، فان الله تعالى ما فطر الناس على شيء قبيح ، بل خلقهم في أحسن تقويم ، ولا جعل دينه مخالفا لفطرته. بل موافقا لها كما قال : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وكيف يكون حب النساء في أصل الفطرة مذموما وهو وسيلة اتمام حكمته تعالى في بقاء النوع الى الأجل المسمى ، وهو من آياته تعالى الدالة على حكمته ورحمته ، كما قال :

« وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤ .

لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفكَّرُونَ » [1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يحبهن . وكيف يكون حب المال مذموما لذاته ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الايمان ، وهو تعالى ينهى عن الاسراف والتبذير في انفاقه ، كما ينهى عن البخل به ، وقد امتنّ على نبيه بأنه وجده عائلا أو فقيرا فأغناه ، وجعل المال قواما للامم ومعزا للدين، ووسيلة لاقامة ركنين من أركانه ، ومن أعظم أسباب التقرب اليه تعالى .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب العبد التقي الغني الخفي » رواه مسلم في صحيحه ولا أراني في حاجة الى الكلام في حب البنين والخيل والانعام والحرث ، فان الشبهة فيها للغالين في الزهد أضعف .

فعلى المؤمن المتقي أن لا يفتن بهذه الشهوات ، ويجعلها أكبر همه ، والشاغل له عن آخرته ، فاذا اتقى ذلك ، واستمتع بها بالقصد والاعتدال، والوقوف عند حدود الله تعالى فهو السعيد في الدارين :

« رَبَّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حسَنَةً وَقِنا عَذَابَ النَّارِ » [2] .



والحديث عن التمتع بالطيبات يذكرنا بمتعة المطلقات التي يقول عنها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة :

« وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلى المُتَّقِينَ » [3] .

---

(١) سورة الروم ، الآية ٢١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٠١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٤١ .

وفي سورة الاحزاب يقول :

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذا نَكَحْتُمُ المُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً »[1] .

وفي السورة نفسها قد جاء قول الله تعالى عن أمهات المؤمنين زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم :

« يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً »[2] .

ومتعة الطلاق مستحبة فيستحب للمطلق أن يعطي امرأته عند طلاقها شيئا يهبها اياه ، وقد تكون ثلاثة أثواب ، وفي هذا المجال يقول التنزيل في سورة البقرة :

« وَمَتِّعُوهُنَّ عَلى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلى الْمُقتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ »[3] .

أي أعطوا الزوجات المطلقات شيئا يتمتعن به ولتكن هذه المتعة على حسب حالكم في الثروة ، فهي تختلف باختلاف ثروة الرجل سعة وضيقا، وكل انسان أعرف بثروة نفسه ، فالمتعة تكون على الازواج بما يتعارفون عليه بحسب اختلاف أصنافهم وأحوال معايشهم ، وهذه المتعة واجبة على

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٤٩ .
(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٢٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٣٦ .

المؤمنين الذين يحسنون المعاملة مع النساء ، لأن المتعة للمطلقة يراد بها تخفيف وحشة الطلاق ، والطلاق ــ كما يقول الامام محمد عبده ــ فيه غضاضة وايهام للناس أن الزوجة ما طلقها الا وقد رابه شيء منها ، فاذا هو متّعها متاعا حسنا زالت هذه الغضاضة وانتفى ذلك الايهام ، حيث يكون هذا المتاع الحسن كالشهادة بنزاهتها ، والاعتراف بأن الطلاق كان من جهته لعذر يختص به ، وليس لعلة فيها ، والله جل جلاله قد أمرنا بأن نحافظ على الاعراض بقدر الطاقة ، فجعل التمتيع هنا كالبلسم لجراح قلبها .

وهناك أيضا متعة الحج وهي ضم العمرة اليه ، ويقول الله تعالى في سورة البقرة :

« فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إلى الحَجِّ فَما اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ »[1] .

أي اذا أمنتم الاحصار وزال خوف العدو ، فمن تمتع بمحظورات الاحرام بسبب العمرة ، أي بسبب أدائها ، بأن أتمها وتحلل ، وبقي متمتعا الى زمن الحج ، ليحج من مكة ، فعليه ما استيسر من الهدي ، وأقله شاة .

ويقول ابن الاثير : ان التمتع في الحج له شرائط معروفة في الفقه ، وهو أن يكون قد أحرم في أشهر الحج بعمرة ، فاذا وصل الى البيت ، وأراد أن يحل ويستعمل ما حرم عليه ، فسبيله أن يطوف ويسعى ويحل ، ويقيم حلالا الى يوم الحج ، ثم يحرم من مكة بالحج احراما جديدا ، ويقف بعرفة ويطوف ويسعى ويحل من الحج ، فيكون قد تمتع بالعمرة في أيام الحج . وينبغي لنا أن نلاحظ أن فضيلة التمتع بالطيبات يقصد منها التمتع

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٦ .

العاقل الفاضل ، لأن هناك أنواعا من التمتع لا تحمد ، بل تعاب ، فالقرآن الكريم يحدثنا مثلا عن متاع الاستدراج ، كما في سورة البقرة :

« وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ »[1] .

وكما في سورة الحجر :

« ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »[2] .

وفي سورة المرسلات :

« كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قليلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ »[3] .

وكما في سورة الزمر :

« قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قليلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ »[4] .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيذنا من فتنة الاغترار بمتاع الحياة الدنيا ، وأن يمن علينا بالتزين الكريم عند عبادته . والتمتع الحميد بطيباته ، انه نعم المولى ، وهو خير الرازقين .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٦ .
(٢) سورة الحجر ، الآية ٣ .
(٣) سورة المرسلات ، الآية ٤٦ .
(٤) سورة الزمر ، الآية ٨ .

الاعداد والاستعداد

الاعداد هو تهيئة الشيء للمستقبل ، واعداد الشيء احضاره ، والعُدة : ما أعددته لحوادث الدهر من المال والسلاح ، ويقال أخذ للامر عدته أي أهبته ، وأعددت لك هذا : جعلته بحيث تعده وتتناوله بحسب حاجتك اليه .

والعد : الاحصاء ، وأعد لأمر كذا أي هيأه له ، وأخذ له عدّته ، واستعد : تهيأ كأعد . وفلان في عداد أهل الخير أي يعد فيهم ، والعتاد : ادخار الشيء قبل الحاجة اليه كالاعداد ، ومن كلام العرب الذي ذكره صاحب « لسان العرب » : كونوا على عُدّة ، أي استعداد ، وهذا يذكرنا بشعار حركة الكشافة الذي يقول : كن مستعدا ، ومن هذا نفهم أن العرب قد سبقوا من ابتدعوا نظام الكشافة الى قول هذا الشعار .

والاعداد أو الاستعداد خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم ، ومن شأن الانسان البصير المتخلق بأخلاق الخير وخصال البر ، أن يحسب حساب الغد ، فيدخر له ما يستطيعه من وسائل الصيانة وأسباب الحصانة، وأن يبادر فيجعل له عند ربه رصيدا من الزاد والعتاد ، مما ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

ولقد قلت في كتابي « توجيه الرسول للحياة والاحياء[1] » هـذه العبارة : « ان العمر محدود ، والاجل غير معلوم ، والانسان لا يدري متى يودّع حياته ليلقى ربه ، والماضي قد ذهب ولن يعود ، والمستقبل غيب محجب ، فلم يبق الا اليوم ، فواجب المؤمن انتهاز الفرصة فيه قبل ان تصير غصّة :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

وهناك آفات وعوائق تصد الانسان عن مواصلة العمل أو الجد فيه، فعليه أن يبادر ويسارع الى ادخار الطيبات عند ربه قبل أن يعجز عن ذلك ، ولذلك يقول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

كما قلت : « القرآن الكريم يحثنا على المبادرة بالطيبات ، والمسارعة الى الصالحات ، والمسابقة الى القربات ، فيقول في سورة آل عمران :

« وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ »[2] .

ويقول في السورة نفسها عن المؤمنين :

« يُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ في الخَيْراتِ وَأُولَئِكَ مِنَ

(١) كتابي « توجيهات الرسول للحياة والاحياء » صفحة ٣٠٣ ، مطبعة دار الجيل ببيروت ، الطبعة الاولى سنة ١٩٧٧ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٣ .

الصَّالِحِينَ » [1] .

وفي سورة الانبياء عن زكريا :

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَه إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ » [2] .

وفي سورة المؤمنين :

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهـــا سابِقُونَ » [3] .

وفي سورة الواقعة :

« والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ » [4] .

وفي سورة الحديد :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٤ .
(٢) سورة الانبياء ، الآية ٩٠ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٥٧ ــ ٦١ .
(٤) سورة الواقعة ، الآية ١٠ و١١ .

« سابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ »[1] .

وقد أشار القرآن الكريم الى فضيلة الاعداد جُهد الطاقة والاستطاعة فقال في سورة الانفال :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ في سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ »[2] .

أمر الله عباده المؤمنين بأن يستعدوا لدفع العدوان والشر ، ولحفظ الانفس ، ورعاية الحق والفضيلة بأمرين أولهما اعداد جميع أسباب القوة بقدر الاستطاعة ، والامر الثاني هو مرابطة الفرسان المجاهدين في الثغور والحدود .

والحديث يقول : « ألا ان القوة الرمي » . والرمي يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة أو غير ذلك ، والرمي في كل عصر بحسب ما يهتدي اليه أهله .

وفي « لطائف الاشارات » جاء تفسير الآية على هذا الوجه : «أعدوا لقتال الاعداء ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة ، وأتمها قوة القلب بالله ،

---

(١) سورة الحديد ، الآية ٢١ .
(٢) سورة الانفال ، الآية ٦٠ .

والناس فيها مختلفون ، فواحد يقوي قلبه بموعود نصره ، وآخر يقـوي قلبه بأن الحق عالم بحاله ، وآخر يقوي قلبه لتحققه بأن يشهد من ربه . قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » وآخر يقوي قلبه باثـار رضاء الله تعالى على مراد نفسه ، وآخر يقوي قلبه برضاه بما يفعله مـولاه به . ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد ، وتبريه من حوله وقوته».

ونعود الى « ظلال القرآن » في تفسير الآية أيضا ، لنجـده يقول : « الاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد ، والنص يأمر باعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ، ويخص رباط الخيل بأنه الاداة التي كانت بارزة عند من يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة ، ومع ذلك فما يزال رباط الخيل ضروريا في كثير من المواقع التي يعسر الوصول اليها بوسائل الحرب الحديثة . والمهم هو عموم النص واتجاهه الى اعداد كل قوة مستطاعة ، ومنها قوة العقيدة والتربية والخلق والتنظيم ، فالوسائل المادية وحدها ليست هي التي تفصل في المعارك ، والاعصاب أحيانا تكون هي القوة الفاصلة ، وما يثبت الاعصاب ويقويها كالعقيدة التي تربـط القلوب بالله ، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التي لا تغلب ، وتمد الارواح بالينبوع الدافق الذي لا ينضب .

ويحسن أن نعرف حدود التكليف باعداد القـوة ، فالنص يقول :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ »[1].

واذن فليس المقصود اعداد قوة مماثلة لقوة الاعـداء . وفريضـة الجهاد لا تنتظر حتى يتم اعداد قوة مماثلة . ان ذلك أمر يطول ، وقد لا يجيء أبدا . ولو انتظر المسلمون بغزوة بدر حتى تتكافأ قوتهم وقـوة

(١) سورة الانفال ، الآية ٦٠ .

خصومهم ما قام الأسلام ، انما هي الحفنة المؤمنة ، استعدت بقدر ما استطاعت ، ثم خاضت المعركة فكان فيها الفرقان » .

وقد جاء ذكر الاعداد في موطن آخر من القرآن الكريم ، حيث يقول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة :

« وَلَوْ أَرادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القاعِدِينَ » (١) .

قال بعض أهل التأويل ، اعداد العدة هنا يراد به متابعة الانبياء .

وفي لطائف الاشارات : لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ولكن سقمت ارادتهم ، فحصلت دون الخروج بلادتهم ، وكذلك قيل : « لو صح منك الهوى أرشدت للحيل » .

وينبغي أن نلاحظ أن معنى الاعداد والاستعداد قد يظهر لنا من معنى الاستباق الى الخير والبر ، كما في قول الله تعالى في سورة المائدة :

« فاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً » (٢) .

وكذلك يظهر في معنى التزود من الصالحات ، حيث يقول الحق جل جلاله في سورة البقرة :

« وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يا أُولي الأَلْبَابِ » (٣) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٦ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٩٧ .

أي تزودوا لمعادكم من الاعمال الصالحة ، وخير الزاد اتقاء المنهيات ، وفي هذا تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار ، ولذلك قال أهل الاشارات : ذكّرهم الله تعالى سفر الآخرة ، وحثهم على تزود التقوى فان التقوى زاد الآخرة . يقول الشاعر :

اذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

ويقول الآخر :

الموت بحر طامح موجه تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس اني قائل فاسمعي مقالة من مشفق ناصح
لا يصحب الانسان في قبره غير التقى والعمل الصالح

ولقد أرشدتنا السنة المطهرة الى أمور تعد من لباب الاعداد والاستعداد بالمعنى الاخلاقي الجليل ، فروى الامام مسلم قول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ان أفضل ما نعد شهادة أن لا اله الا الله » .

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلا ــ هو ذو الخويصرة اليماني ــ سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : متى الساعة ؟.

فقال له النبي : وماذا أعددت لها ؟.

قال الرجل : لا شيء الا أني أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فقال النبي أنت مع من أحببت .

قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت .

ثم قال أنس : فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر ،

وأرجو أن أكون معهم بحبي اياهم ، وان لم أعمل بمثل أعمالهم . رواه البخاري .

وهناك رواية أخرى رواها البخاري أيضا عن أنس قال : بينما أنا والنبي صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد ، فلقينا رجل عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ (أي متى تقوم القيامة) .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما أعددت لها ؟

فكأن الرجل استكان .

ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة ، ولكن أحب الله ورسوله .

قال النبي : أنت مع من أحببت .

ويروي الترمذي قول سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه : كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعُد نفسك من أهل القبور .

وهذه الحال تجعل صاحبها يحسن الاعداد والاستعداد ، كما جاء في الاثر الاسلامي القائل : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وقد أشار عمر رضوان الله عليه الى فضيلة الاعداد والاستعداد حين قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيأوا للعرض الاكبر ، يومئذ تعرضون على ربكم لا تخفى منكم خافية .

نسأل الله عز وجل أن يهبنا نعمة الاعداد لما عنده ، والاستعداد ليوم لقائه ، انه بالمؤمنين رؤوف رحيم .

التحدث بنعمة الله

التحدث من الحديث ، والحديث تدل مادته على وجود أمر بعد أن لم يكن ، والحديث بمعنى الكلام من هذا الباب ، لأنه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء . وحداثة السن كناية عن الشباب واول العمر . هكذا تقول اللغة ، وفي تاج العروس أنه جاء في حديث الحسن : « حادثوا هذه القلوب بذكر الله تعالى ، فانها سريعة الدثور ، أي اجلوها بالمواعظ ، واغسلوا الدرن عنها ، وشوقوها حتى تلقي عنها الصدأ الذي تراكم عليها ، وتعاهدوها بذلك .

والتحدث بنعمة الله تبارك وتعالى خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم .

وقد جاء ذكر التحدث بنعمة الله عز شأنه ذكرا صريحا في قول الله سبحانه مخاطبا سيدنا وقائدنا ورائدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك قوله في سورة الضحى :

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » (١) .

---

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

أي ما جاءك من الله تعالى من نعمة وكرامة ، كالنبوة ، أو القرآن ، أو جميع الخيرات الاخرى ، فحدث بها واذكرها وادع اليها . وقال ابن كثير : كما كنت عائلا فقيرا فأغناك الله سبحانه ، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي : « اجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك ، قابلين لها ، وأتمها علينا » . وقيل ان المعنى : انشر ما أنعم الله به عليك بالشكر والثناء والتحدث بالنعمة . والاعتراف بها شكر .

وللرازي في تفسير هذه الآية عبارة يقول فيها : اذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل ــ وذلك التوفيق نعمة من الله عليك ــ فحدث بها ليقتدي بك غيرك . ومنه ما روي عن الحسين بن علي عليهما السلام أنه قال : اذا عملت خيرا فحدث اخوانك ليقتدوا بك . الا أن هذا انما يحسن اذا لم يتضمن رياء ، وظن أن غيره يقتدي به . ومن ذلك أنه لما سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الصحابة ، أثنى عليهم وذكر خصالهم ، فقالوا له : فحدثنا عن نفسك . فقال : مهلا فقد نهى الله عن التزكية .

فقيل له : أليس الله تعالى يقول : وأما بنعمة ربك فحدث ؟.

فقال : فاني أحدّث ، كنت اذا سئلت أعطيت ، واذا سكت ابتديت ، وبين الجوانح علم جم ، فاسألوني .

ويقول الله تبارك وتعالى في شأن ذكر نعم الله والتحدث بها في سورة البقرة :

« اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » [1] .

أي لا تغفلوا عن نعمتي التي أنعمت بها ولا تناسوها ، بل اذكروها

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٠ .

وتحدثوا بها ، واشكروها قولا وعملا .

ولقد قال المحققون : التحديث بنعم الله تعالى جائز مطلقا ، بل مندوب اليه اذا كان الغرض منه أن يقتدي غيره به ، أو أن يشيع شكر ربه بلسانه، واذا لم يأمن على نفسه الفتنة والاعجاب فالستر أفضل . ولذلك يقول الحسن رضي الله عنه : اذا أصبت خيرا ، أو عملت خيرا ، فحدث به الثقة من اخوانك . وكان عمرو بن ميمون يردد قوله : اذا لقي الرجل من اخوانه من يثق به يقول له : رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا .

ولا شك أن الرجل الذي يحلي نفسه ويجمل ذاته بفضيلة التحدث بنعم الله سبحانه ــ قولا وعملا ــ رجل جدير بالتقدير والمثوبة والاجر من خالقه تبارك وتعالى لأن هذا التحدث يدل أولا على تقدير النعمة ، ويدل ثانيا على روح الاعتراف والاقرار بفضل خالقها وواهبها ، ويدل ثالثا على أن النعمة وجدت لديه الارض الطيبة التي تثمر خير الاثمار ولذلك يعد التحدث بالنعمة من أكرم خصال الانبياء وفضائلهم ، وهذا زعيمهم محمد ، كان أحرص الناس على التحدث بفضل ربه ، وأسرع الناس الى عبادته وشكره ، وكلما قال له أحد من خاصته : لم تجهد نفسك في العبادة ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيجيب قائلا : « أفلا أكون عبدا شكورا » ؟.

وقد أشار القرآن الى أن التحدث بالنعمة وشكرها من فضائل الانبياء ، فقال في سورة النمل على لسان سليمان :

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ

فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ » [1] .

أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل عملا تحبه وترضاه ، واذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الاعلى من أوليائك .

وفي الجزء الاول من كتابي «أخلاق القرآن[2]» تحدثت عن فضيلة الشكر ، خلال عشر صفحات ، ومن هذا الحديث ندرك عمق الصلة بين فضيلة الشكر وفضيلة التحدث بنعمة الله ، لأن الشكر هو تصور النعمة واظهارها ، وضده الكفر ، وهو نسيان النعمة وسترها ، بل توسع بعضهم في تصوير الشكر فوصفه بأنه مقابلة النعمة بالفعل والقول والنية فيثني على النعم بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته ، ويعتقد أنه موليها .

ويروي أبو نضرة قوله : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم التحدث بها .

ومن جميل صنع الله بنا أنه جعل شكرنا للناس على معروفهم داخلا ضمنا في شكر الله تعالى ، فروى الترمذي وأبو داود قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

وروى أبو داود الحديث التالي : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » .

وروى أيضا : « من أعطي عطاء فوجد فليجز به ، فان لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » .

---

(1) سورة النمل ، الآية ١٩ .
(2) كتابي « أخلاق القرآن » ج١ ص ١١٢ ــ ١٢١ . نشر دار الرائد العربي، سنة ١٩٧١ .

ومن مظاهر فضيلة التحدث بنعمة الله تبارك وتعالى أن يتمتع الانسان تمتعا معقولا مقبولا معتدلا بما ساق الله اليه من نعم وخيرات وآلاء ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول في هذا الشأن : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وعن مالك بن نضلة الجشمي : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ، فرآني رث الثياب ، فقال : ألك مال ؟. قلت : نعم يا رسول الله ، من كل المال . قال : اذا آتاك الله مالا ، فلير أثره عليك .

والتحدث بنعمة الله عز شأنه يتضمن الثناء على الله المنعم المتفضل ، ولابن القيم في «مدارج السالكين» عبارة تبين الصلة بين التحدث والثناء، يقول فيها :

« الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان : عام وخاص ، فالعام وصفه بالجود والكرم والبر والاحسان ، وسعة العطاء ، ونحو ذلك . والخاص التحدث بنعمته ، والاخبار بوصولها اليه ، من جهته ، كما قال تعالى :

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » [1] .

وفي هذا التحديث المأمور به قولان ، أحدهما أنه ذكر النعمة والاخبار بها ، وقوله : أنعم الله عليّ بكذا وكذا . قال مقاتل : يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة ، من جبر اليتم ، والهدى بعد الضلال ، والاغناء بعد العيلة .

والتحدث بنعمة الله شكر ، كما في حديث جابر مرفوعا : « من صنع اليه معروف فليجز به ، فان لم يجد ما يجزي فليثن ، فانه اذا أثنى عليه فقد شكره ، وان كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور » .

---

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

فذكر اقسام الخلق الثلاثة : شاكر النعمة المثني بها ، والجاحد لها والكاتم لها ، والمظهر أنه من أهلها ، وليس من أهلها ، فهو متحل بما لم يعطه .

وفي أثر آخر مرفوع : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » .

والقول الثاني : ان التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية : هو الدعوة الى الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الامة . قال مجاهد : هي النبوة. قال الزجاج : أي بلّغ ما ارسلت به ، وحدّث بالنبوة التي آتاك الله . وقال الكلبي : هو القرآن ، أمره أن يقرأه .

والصواب انه يعم النوعين ، اذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها ، والتحدث بها . واظهارها من شكرها .

وضد التحدث بالنعمة هو جحود النعمة وانكارها . والجحود رذيلة من أقبح الرذائل ، وخصوصا اذا كانت النعمة من الله تبارك وتعالى ، والقرآن الكريم يقول في سورة النحل عن اخساء من الناس :

« يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الكافِرُونَ»[1].

أي يعرفون نعم الله الكثيرة الغزيرة التي أنعم بها عليهم ، أي يعرفون أنها من عند الله تبارك وتعالى ، ثم لا يتحدثون بها ، ولا ينسبونها الى خالقها وواهبها ، بل يقولون ، انهم ورثوا عن آبائهم . أو قد عرّفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه النعم وقررهم بها ، فأقروا ، ولكنهم قالوا انها جاءت بشفاعة أهلنا ، أو هم يعرفون نعم الله تعالى ، لأنهم يتمتعون بها

---

(١) سورة النحل ، الآية ٨٣ .

ويتقلبون فيها ، ولكنهم ينكرونها بترك الشكر عليهم ، فهم يعرفونها بأقوالهم ، وينكرونها بأفعالهم ، أو يعرفونها بقلوبهم ، وينكرونها بألسنتهم، أو يعرفونها عند الشدة ، وينكرونها عند الرخاء .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة النمل عن طائفة من الجاحدين :

« وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ »[1] .

أي أنكروا آية الله سبحانه في ظاهر أنفسهم ، وعلموا في أنفسهم أنها من عند الله عز شأنه ، ولكنهم جحدوها وعاندوها ، ظلما من أنفسهم، واستكبارا عن اتباع الحق ، فانظر كيف عاقبة امرهم في اهلاك الله جل جلاله اياهم .

نسأل الله عز شأنه أن يوفقنا فيجعلنا بفضله ورحمته من المزدانين بفضيلة التحدث بنعمه وآلائه ، وأن يباعد بيننا وبين رذيلة الجحود والنكران ، انه سميع مجيب .

---

(١) سورة النمل ، الآية ١٤ .

تعظيم شعائر الله

تقول اللغة : الشعيرة والشعار والشعارة : تطلق على المكان أو الشيء الذي يشعر بأمر له شأن ، وأطلق على معالم الحج ومواضع النسك ، وتسمى مشاعر ــ جمع مشعر ــ وعلى العمل الاجتماعي المخصوص الذي هو عبادة ونسك . والشعائر هي المعالم التي ندب الله اليها وأمر بالقيام بها ، وقيل ان معالم الحج معالمه الظاهرة للحواس ، وقيل ان شعائر الحج هي آثاره وعلاماته ، أو كل ما كان من أعماله ، كالوقوف والطواف والسعي والرمي والذبح وغير ذلك . والشعار ما يشعر به الانسان نفسه في الحرب أي يعلّم ، وشعار الحرب ما يتعارف به الجيش .

وتعظيم حرمات الله تبارك وتعالى هو صيانتها واجلالها ، والشعور في قلب الانسان بالرهبة منها والحرص على أداء الحقوق المتعلقة بها في وفاء واخلاص ، وهذا بالمعنى الاخلاقي يعد خلقا من أخلاق القرآن الكريم وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانبا من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم ، وقد تكرر ذكر الشعائر في القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة :

« إِنَّ الصَّفا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حجَّ البَيْتَ

أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ » [1] .

أي ان السعي بين جبلي الصفا والمروة من أعلام دين الله سبحانه ، أو هما من متعبداته ، على أساس أن شعائر الله هي اعلام طاعته ، فكل شيء جعل علما من أعلام طاعة الله فهو من شعائر الله عز وجل ، ويعلل «تفسير المنار » كون المناسك والاعمال في الحج شعائر وعلامات بأن القيام بها علامة على الخضوع لله تعالى وعبادته ايمانا وتسليما ، فالشعائر لا تطلق الا على الاعمال المشروعة التي فيها تعبد لله سبحانه ، ولذلك غلب استعمال الشعائر لأنها تعبدية ، ولذلك قال الزجاج في قوله تعالى :

« لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ » [2] .

أي جميع متعبداته التي أشعرها الله ، أي جعلها الله اعلاما لنا .

ويذكر تفسير « في ظلال القرآن » أن حديث القرآن هنا عن الصفا والمروة مثال من المنهج القرآني التربوي العميق ، اذ يبدأ بتقرير أن الصفا والمروة من شعائر الله : « ان الصفا والمروة من شعائر الله » فاذا اطوّف بهما مطوّف فانما يؤدي شعيرة من شعائر الله ، وانما يقصد بالطواف بينهما الى الله ، ثم يختم الآية بتحسين التطوع بالخير اطلاقا : « ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليهم » فيلمح الى أن هذا الطواف من الخير ، ينيب عليه بالخير ، والله شاكر ، وهذا تعبير يشيع ظلال الرضا الكامل ، حتى كان الشكر من الرب للعبد ، ومن هنا يوحي التعبير بالادب الواجب من العبد مع الرب ، فاذا كان الرب يشكر لعبده الخير ، فماذا يصنع العبد ليوفي

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٨ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٢ .

الرب حقه من الشكر والحمد ، وهو جل جلاله الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من نية وشعور .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة أيضا :

« فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفات فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرامِ واذْكُرُوهُ كما هَدَاكُمْ وإنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ » [1] .

والمشعر الحرام هو الجبل الذي يقف عليه الامام في الحج ، وقيل هو المزدلفة ، وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاه دعا وكبر وهلل. أي اذا دفعتم ركائبكم من عرفات بعد الوقوف المعروف عليها ، فاذكروا الله تعالى بالدعاء والتهليل ، والتكبير والتلبية عند المشعر الحرام وهو الجبل المعروف ، ويسمى قُزَح ــ بضم ففتح ــ وسمي مشعرا لأنه معلم للعبادة ، ووُصف بالحرام لحرمته .

ويقول القرآن الكريم في سورة المائدة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ ولا الشَّهْرَ الحَرامَ وَلا الهَدْيَ وَلا القَلائِدَ وَلا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ، وَإذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَام أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعاوَنُوا عَلى البِرِّ وَالتَّقْوَى ولا تعاوَنُوا عَلى

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٨ .

الإِثْمِ وَالعُدوانِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ العِقَابِ »[1] .

الشعائر هنا ما يهدي الى بيت الله سبحانه ، وسميت بذلك لأنها تُشعَر ، أي تعلَّم بأن تُدمى بحديدة ، وقيل ان شعائر الله هي محارمه ، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله عز وجل ، وقيل ان المعنى : لا تجعلوا شعائر الله حلالا تتصرفون بها كما تشاؤون . وقد جعلها الله معالم وأمارات تعلمون بها فرائض الله وحدوده ، وحلاله وحرامه ، بل اعملوا فيها بما بينه لكم ، فلا تتعدوا حدود الله في أمر من الامور ، وشعائر الله ـ على هذا ـ هي جميع ما أمر الله به ونهى عنه ، ولذلك قال الحسن : شعائر الله هي دين الله كله . وقال القشيري : الشعائر معالم الدين ، وتعظيم ذلك واحلاله خلاصة الدين ، ولا يكون ذلك الا بالاستسلام عند هجوم التقدير ، والتزام الامر بجميل الاعتناق ، واخلال الشعائر يكون بالاخلال بالاوامر .

ولنلاحظ هنا كيف جمع النص الكريم بين تعظيم شعائر الله والتقوى، ولعل السر في ذلك هو أن تعظيم شعائر الله مظهر لاجلال الله سبحانه ، واجلال الله باعث على التقوى محقق لها ، وهذا الربط بين التقوى وتعظيم الشعائر يوضح لنا عمق الصلة بين التقوى وهذا التعظيم ، وبذلك يتضح لنا ان تعظيم شعائر الله خلق قرآني وفضيلة اسلامية وهدي نبوي .

ويقول القرآن الكريم في سورة الحج :

« ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فإِنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ »[2].

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٢ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٣٢ .

وقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى :

« ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » [1]

وتعظيم حرمات الله ــ كما يقول أهل التفسير ــ يتبعه التحرج من المساس بها ، وذلك خير عند الله : خير في عالم الضمير والمشاعر وخير في عالم الحياة والواقع ، فالضمير الذي يتحرج هو الضمير الذي يتطهر ، والحياة التي ترعى فيها حرمات الله هي الحياة التي يأمن فيها البشر من البغي والاعتداء ، ويجدون فيها مثابة أمن ، وواحة سلام ، ومنطقة اطمئنان .

وفي قوله تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » نص صريح واضح على الارتباط بين تعظيم شعائر الله وتقوى القلوب ، حتى لو أخذنا بالتفسير الضيق النطاق لمعنى شعائر الله وهو الهدي الذي يسوقه الحجيج ، فالتقوى ــ كما يشرح تفسير في ظلال القرآن ــ هي الغاية من مناسك الحج ومشاعره ، فهذه الشعائر ما هي الا رموز تعبر عن التوجه الى رب البيت وطاعته ، وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد أبي الانبياء ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وما تلا عهد ابراهيم ، وهي ذكريات الطاعة والانابة لله والتوجه اليه منذ نشأت هذه الأمة المسلمة ، فهي والدعاء والصلاة سواء .

---

(١) سورة الحج ، الآية ٣٠ و٣١ .

وهذه الانعام التي ينحرها الحجيج في نهاية أيام الاحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها ، ان كان في حاجة اليها لركوبها ، أو حاجة الى ألبانها لشربها ، الى أن تبلغ مكانها وهو البيت الحرام ، ثم تنحر هناك ، ولقد كان المسلمون على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام يغالون في الهدي فيختارونه سمينا غالي الثمن ، يعلنون بذلك عن تعظيمهم لشعائر الله مدفوعين بتقوى الله حتى روي أن عمر بن الخطاب أهدى نجيبة ــ أي ناقة كريمة أصيلة ــ فأراد بعضهم أن يعطيه بدلها ثلاثمائة دينار ، فذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم يستشيره وسأله : أفأبيعها واشتري بثمنها نياقا أنحرها ؟ فقال له النبي ﷺ : انحرها اياها .

ولم يكن عمر يريد بهذا أن يضن بقيمة هذه الناقة ، بل كان يريد أن يبيعها ليشتري بثمنها نياقا أو بقرا للذبح ، فنصحه الرسول أن يضحي بالناقة نفسها ، لأنها أدل على التقوى والاخلاص والبذل في سبيل الله : « فانها من تقوى القلوب » .

ولنتذكر ما سبق من قول الحسن : شعائر الله هي دين الله كله ، ويفسر هذا أحسن تفسير قول الحسن أيضا : قوله « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » أي دين الله .

وفي تفسير القرطبي : وهذا القول هو الراجح الذي يقدم على غيره لعمومه .

وعندما تحدث تفسير « لطائف الاشارات » عن بيان قوله تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » أورد هذه العبارة التي جاءت على طريقته الخاصة به : « يقف المؤمن على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهرا ، وبخواطر الالهام سرا ، وكما لا تجوز مخالفة شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق ، فان خاطر الحق لا

يكذب ، وعزيز من له عليه وقوف . وكما أن النفس لا تصـدق فالقلب لا يكذب ، واذا خولف القلب عَمِيَ في المستقبل ، وانقطعت عنه تعريفات الحقيقة ، والعبارة والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير» .
ويقول الله تبارك وتعالى في سورة الحج أيضا :

« وَالبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا القانِعَ والْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دماؤُها وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّروا اللهَ عَلى ما هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ » [1] .

والبدن هي الابل والبقر ، جعلها الله من أعلام الشريعة التي شرعها الله لكم ، فيها ثواب في الآخرة ، وصواف : قائمـة مصفوفـة الايـدي والارجل ، ووجبت جنوبها : سقطت على الارض بعد الذبح . والقـانع : السائل . والمعتر : الذي يتعرض لكم دون سؤال .

ولنلاحظ هنا مرة أخرى كيف ربط القرآن الكريم تعظيم شعائر الله مع التقوى والاخلاص ، وافراد الله بالتوجه اليه سبحانه ، ولذلك يقـرر القشيري أنه لا عبرة بأعيان الافعال سواء أكانت بدنية محضة ، أو ماليـة صرفة ، أو بما له تعلق بالوجهين، ولكن العبرة باقترانها بالاخلاص، أي أن تكون خالصة لله حتى تصلح للقبول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤهـا

---

(١) سورة الحج ، الآية ٣٦ و٣٧ .

ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين .

وتعظيم حرمات الله يكون بتعظيم أمره ، وتعظيم أمره يكون بترك مخالفته ، لأن من طلب الرضا بغير رضا الله لا يصل الى القبول أو الرضوان . والحرمات جمع حرمة وهي ما يحل هتكه ، وجميع ما كلفنا الله به بهذه الصفة ، من مناسك الحج وغيرها . ويحتمل أن يكون ذلك عاما في جميع تكاليفه ، وقد روي أن الحرمات خمس : الكعبة الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمشعر الحرام .

ويقول ابن كثير : من يجتنب معاصي الله ومحارمه ، ويكون ارتكابها عظيما في نفسه ، فهو خير له عند ربه ، أي فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل ، فكما يوجد على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل ، يوجد مثل ذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات .

ويعقد ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » رابطة بين فضيلة المعرفة بالله وتعظيمه في القلب — وتعظيم الله يستتبع تعظيم شعائر الله وحرماته فيقول : « ومن منازل « اياك نعبد واياك نستعين » منزلة التعظيم، وهذه المنزلة تابعة للمعرفة ، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب ، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيما واجلالا ، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته ، ولا عرفه حق معرفته ، ولا وصفه حق صفته . وأقوالهم تدور على هذا ، فقال تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقارا » . قال ابن عباس ومجاهد : لا ترجون لله عظمة . وقال سعيد بن جبير : ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته ؟. وقال الكلبي : لا تخافون لله عظمة .

قال البغوي : والرجاء بمعنى الخوف ، والوقار العظمة ، اسم من التوقير ، وهو التعظيم . وقال الحسن : لا تعرفون لله حقا ، ولا تشكرون

له نعمة . وقال ابن كيسان : لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم اياه خيرا .

وروح العبادة هو الاجلال والمحبة ، فاذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت ، فاذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد، والله سبحانه أعلم » .

وتعظيم الله تعالى يشمل تعظيم أمره ونهيه ، بلا تردد ولا تشكك ولا تأول ، وبلا افراط ولا تفريط ، وتعظيم حكمه يقتضي عرفان قضاء كل حق ، وتعظيم الحق سبحانه ، لأنه الخالق لكل شيء . نسأل الله عزت ارادته وغلبت مشيئته ان يجملنا بفضيلة التعظيم لشعائر الله ، والحفظ لحرمات الله ، انه على كل شيء قدير .

* * *

التنافس في الخير

التنافس ـ كما قال الطبري ـ مأخوذ من الشيء النفيس ، والشيء النفيس هو الثمين الذي تحرص عليه نفوس الناس وتشتهيه وتطلبه . وتنافسا في الامر تغالبا . ونافس الرجل صاحبه في الامر أي سابقه ، وأنفس الاعمار أطولها ، وتنافس الرجلان في الخير تغالبا في احرازه ، وتسابقا يريد كل منهما أن يستأثر به ، أو يفوق صاحبه فيه ، ومأخذ ذلك من النفاسة ، وهي رفعة الشيء وعظم مكانته ، فان التغالب يكون في الشيء النفيس ، أو أن كلا منهما يريد أن يكون أنفس من الآخر بما يحرزه من الفضل ، أو يتفوق فيه .

والمنافسة بالمعنى الاخلاقي هي مجاهدة النفس للتشبه بالافاضل ، واللحوق بهم من غير ادخال ضرر على آخر ، والتنافس بهذا المعنى خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجزء من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم .

وقد ورد ذكر هذه الفضيلة القرآنية في القرآن المجيد ، حيث يقول الله تبارك وتعالى في سورة المطففين :

« وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » [1] .

ويقول الرازي في ذلك ان المعنى هو : فليرغب الراغبون في مثل ذلك ، بالمبادرة الى طاعة الله ، لأن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا في النعيم الدنيوي الذي هو مشوب بالكدر ، سريع الزوال والفناء . ويقول مفسر آخر : فليرغب الراغبون وليتبادر المتبادرون بالمبادرة الى طاعة الله تبارك وتعالى ، لأن كلا منهم يريد أن يتقدم غيره في طريق الخير والبر ، بما يظهر من نفسه من الجد والاجتهاد ، والاعتمال في الطاعة والعبودية لمولاه جل جلاله . ويقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية : في ذلك النعيم وما تلاه يرغب الراغبون ، ويسبق بعضهم بعضا اليه بالاعمال الصالحة التي تقرب منه .

والنص القرآني في هذا الموطن يتحدث عن الابرار أصحاب النعيم، الذين يجلسون على الارائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، ويقول : « يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » أي يسقى هؤلاء الابرار من خمر صرف لا غش فيها مزاجها وخلطها مسك ، وطعمها وريحها مسك ، فهؤلاء الابرار الذين يتنافسون في الخيرات ، ويتعاونون في المبرات ، وكل منهم يبذل جهده وطاقته ليكون سباقا الى المكرمات ، يسقون من خمر الجنة الصافي المختوم الذي لا غش فيه ، وعاقبة ما يشربونه مسك طيب وفي مثل هذا المجال الكريم فليتفاخر المتفاخرون ، وليستبق الى مثله المتسابقون وذلك كقوله تعالى : « لمثل هذا فليعمل العاملون»، ويعبر القشيري بقوله: فليتنافس المتنافسون وتنافسهم فيه يكون بالمبادرة الى الاعمال الصالحة ، والمسابقة الى القربات ، وتعليق القلب الطهور بالله تبارك وتعالى ، والتنزه من الاخلاق الدنية والصفات

---

(1) سورة المطففين ، الآية ٢٦ .

الذميمة ، وجولان همة المؤمن بالتفكير في ملكوت السماوات والارض ، ودوام المناجاة لرحمن الدنيا والآخرة . ولنلاحظ أن السورة الكريمة ذكرت صفات هؤلاء الابرار وفي قمتها التنافس في الخير ، بعد أن ذكرت أولئك المطففين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، وبعد أن ذكرت الفجار الذين يكذبون بيوم الدين ، فحق عليهم العذاب الأليم ، وقد جاءت عبارة مبسوطة في تفسير « ظلال القرآن » وفي خلالها تمجيد بفضيلة التنافس في الخير والمسابقة في ميادين البر ، فهو يقول : « ان أولئك المطففين ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ولا يحسبون حساب اليوم الآخر ، ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الاثم والمعصية . ان هؤلاء انما يتنافسون في مال أو متاع من متاع الارض الزهيد . يريد كل منهم أن يسبق اليه ، وأن يحصل على أكبر نصيب منه . ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب ما يرتكب في سبيل متاع من متاع الارض زائل .

وما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس . انما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي ذلك التكريم : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » فهو مطلب يستحق المنافسة ، وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب . والذين يتنافسون على شيء من أشياء الارض مهما كبر وجل وارتفع وعظم ، انما يتنافسون في حقير قليل فان قريب . والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة . ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه . فهي اذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة ومن عجب أن التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا . بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بها جميعا . والسعي لنعيم الآخرة يصلح الارض ويعمرها ويطهرها للجميع. والسعي لعرض الدنيا يدع الارض مستنقعا وبيئا تأكل فيه الديدان بعضها البعض . أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الابرار الطيبين . والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الارض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين.

انما يجعل الاسلام الدنيا مزرعة الآخرة . ويجعل القيام بخلافة الارض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق . على أن يتوجه بهذه الخلافة الى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله ــ سبحانه ــ وهو يقول :

« وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » [1] .

وان قوله :

« وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ » [2] .

لهو توجيه يمد بأبصار أهل الارض وقلوبهم وراء رقعة الارض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمرون الارض ويقومون بالخلافة فيها . ويرفعها الى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه .

ان عمر المرء في هذه العاجلة محدود ، وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته الا الله . وان متاع هذه الارض في ذاته محدود . ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر. وان مستوى النعيم فيهذه الدنيا معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود . فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟

ألا ان السباق الى هناك .. « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من يبعث روح

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .
(٢) سورة المطففين ، الآية ٢٦ .

التنافس في الخير بين أصحابه ، وفي كتابي « رجال صدقوا [1] » عرضت موقفا فيه حث على التنافس في الخير حيث قلت : « قبيل غزوة أحد وقف الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، ورفع في يده سيفا لـه كـان مكتوبا عليه :

في الجبن عـار وفي الاقـدام مكرمة
والمرء بالجبـن لا ينجـو من القـدر

وقال الرسول لاصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقال أكثر من واحد : أنا يا رسول الله . وكان من هؤلاء عمر الفاروق ، وعلي ابن عـم الرسول ، والزبير بن العوام وهو ابن عمة الرسول ، ولكن الرسول لـم يعط السيف أحدا من هؤلاء ، ولعل السبب في هذا هو أنهم لم يسألوا عن حق أخذ السيف ، وقد قال الرسول : « من يأخذ هذا السيف بحقه » .

ثم قام أبو دجانة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : حقه أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني . فقال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله » .

وتحت عنوان : « يتنافسون في الخير » من كتابي «لمحات عن أبي بكر» قلت ما يلي : « نحن نفتخر اليوم بأشياء كثيرة ، فمنا الذي يفتخر بأنه أغنى من سواه ومنا الذي يفتخر بأن قوته أكثر من قوة غيره ، ومنا الذي يفتخر بأن ملابسه أجمل من ملابس غيره ، وهـذا الافتخـار بعيـد عن الحـق والصواب ، لأن الانسان الكامل لا يفتخر بهذه الاشياء التافهة ، والمظاهر الحقيرة ، وانما يكون التسابق والتنافس في العلم والادب والخلق والعمل الصالح ، وقديما كان آباؤنا واجدادنا يتنافسون في الخيرات ، ويتسابقون الى الطاعات ، ويسارعون الى المكرمات ، فكل منهم يود أن يسبق أخـاه

(١) كتابي : « رجال صدقوا » صفحة ٥٠ نشر دار الهلال . سنة ١٩٧٦ .

في ميدان الطاعة والبر ، لا في مهاوي الفجور والاثم ، ولقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينافس سيدنا ابا بكر في عمل الخير ، وهذا من قوة الايمان وحسن الجهاد وصدق النظر .

وذات يوم طلب النبي من صحابته أن يقدم كل منهم ما يستطيع من المال والمتاع والطعام والسلاح الى جيش المسلمين الذي سيخرج غازيا في سبيل الله ، وهو محتاج الى المعونة والمساعدة ، فقال عمر في نفسه : والله لأسبقن أبا بكر اليوم .. وعزم رضي الله عنه على أن يضحي بشيء يظن أن أبا بكر لا يضحي به ، فذهب الى بيته وقسم ماله وجميع ما يملكه نصفين، وأبقى النصف الاول لعياله وأهله ، وذهب بالنصف الثاني الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : وما الذي أبقيت لاهلك يا عمر ؟ فقال عمر : أبقيت نصف مالي يا رسول الله ، فيشكره النبي ويثني عليه بالخير، وترتاح نفس عمر الى هذا الاحسان الذي قدمه لوجه الله ، ولكن سيدنا أبا بكر يأتي بعد قليل ، وقد حمل وراءه مالا كثيرا ، ومتاعا كبيرا لقد حمل ماله كله ، دون أن يبقى منه شيئا لأولاده وأهله ، وأراد النبي أن يسأله عما أبقى لأسرته فقال له : وماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ فأجاب سيدنا أبو بكر اجابة المؤمن الواثق بالله ، المعتمد على رزقه ، المتكل على فضله : يا رسول الله ، لقد أبقيت لهم الله ورسوله .

نعم أبقى لهم الله ورسوله ، والله أكرم من كل كريم ، ورسوله أعز من كل عزيز ، وما عندكم ينفد وما عند الله باق .

هنا حدث عمر نفسه بأنه لن يستطيع أن يسبق أبا بكر بعد ذلك في ميدان الخير ، ورضوان الله على صحابة النبي أجمعين .



واذا كان التنافس في الخير فضيلة من فضائل القرآن فان رسول الله

عليه الصلاة والسلام يحذرنا من لون خبيث وسيء من ألوان التنافس ، وهو التنافس على حطام الدنيا الزائلة ، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه البخاري : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » . وفي حديث آخر يقول صلوات الله وسلامه عليه : « اني والله لأنظر الى حوضي الآن ، واني قد أعطيت خزائن مفاتيح الارض ، واني والله ما أخاف بعدي أن تشركوا ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا في الدنيا » وفي رواية أخرى للبخاري : « اني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » . وفي هذه النصوص بيان أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها ، فلا يطمئن الى زخرفها ، ولا ينافس غيره فيها .

نسأل الله جل جلاله أن يرزقنا فضيلة التنافس في الخير ، والبعد عن التنافس في زائل متاع الحياة انه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

الشوق الى لقاء الله

مادة الشوق تدل عـلى تعلق الشيء بالشيء ، والشوق والاشتياق نـزاع النفس الى الشيء ، والشوق حركـة الهـوى ، وشاقني حسنهـا وشوقني : هاجني وهيَّج شوقي .

وقال السابقون ان الشوق هو هبوب القلب الى غـائب ، أو سـفر القلب الى محبوبه ، أو اهتياج القلوب الى لقاء المحبوب .

والشوق هو احتراق الاحشاء . ومنهـا يتهيج ويتولـد ، ويلهـب القلوب ، ويقطع الاكباد ، وقيل هو لهب ينشأ بين أثنـاء الحشا ، يسنح عن الفرقة ، فاذا وقع اللقاء انطفأ . وقيل الشوق ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقاء بالقرب . والشوق أثر من آثار المحبة ، وحكم من أحكامها ، فانه سفر القلب الى المحبوب في كل حال .

والشوق الى لقاء الله خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم، ولم ترد مادة « الشوق » بلفظها في القرآن الكريم ، ولكن العلماء استدلوا على وجود هذه الفضيلة بقول الله تعالى في سورة العنكبوت :

« مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ

السَّمِيعُ العَلِيمُ »[1] .

وقالوا في تفسير الآية الكريمة : كأن الله تبارك وتعالى ـ وهو أعلم بمراده ـ يريد بهذه الآية الكريمة تعزية المشتاقين اليه ، والتسلية لهم ، ومن أراد لقاء الله فهو مشتاق اليه ، وقد ضمن الله لهذا المشتاق وعد اللقاء ، وحدد له أجلا يتحقق عما قريب ، فهو آت لا محالة ، وكل آت قريب .

وفي تفسير « لطائف الاشارات » يقول القشيري عن الآية : من خاف عذاب الله يوم الحساب فسيلقى يوم الحشر الامان الموعود منا لأهل الخوف اليوم . ومن أقل الثواب يوم البعث فسوف يرى ثواب ما اسلفه من العمل ، ومن زجّى عمره في رجاء لقائنا فسوف نبيح اليه النظر الينا، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة ، والله هو السميع لأنين المشتاقين ، وهو العليم بحنين المحبين الوالهين .

وقد أشار بعض الشعراء الى أثر تعلل المشتاق برجاء اللقاء فقال :

لولا التعلل بالرجاء لقطعت ... نفس المحب صبابة وتشوقا
ولقد يكاد يذوب منه قلبه ... مما يقاسي حسرة وتحرقا
حتى اذا رَوح الرجاء أصابه ... سكن الحريق اذا تعلل باللقا

ويقول القرآن الكريم في سورة الكهف :

« فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحداً »[2] .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ١١٠ .

فالعارف بالله كما يقول القشيري يرجو لقاء الله والنظر اليه، والعمل الصالح الذي بوجوده يصل الى لقائه هو صبره على لواعج اشتياقه وان يخلص في عمله .

وقد قال بعض المفسرين : عجلت شوقا اليك ، فستر الشوق بلفظ الرضا .

وعلامة الشوق الى لقاء الله تبارك وتعالى هو فطام الجوارح عن الشبهات . وقيل ان علامة الشوق حب الموت مع الراحة والعافية ، كحال يوسف عليه السلام لما ألقي في الجب لم يقل لربه : « توفني » ولما أدخل السجن لم يقل : « توفني » . ولما تم له الامر والامن والنعمة قال :

« تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » [1] .

وقد اختلف العلماء في زوال الشوق باللقاء ، فبعضهم قال : ان الشوق ينطفىء باللقاء والوصول والقرب ، لأن الشوق قبل الوصول كان على الخبر والعلم ، وبعد الوصول صار على العيان والشهود ، والشاعر يقول :

وأبرح ما يكون الشوق يوما   اذا دنت الخيام من الخيام

وقال شاعر آخر :

وقد زعموا أن المحب اذا دنا   يمل وأن القرب يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا   على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع   اذا كان من تهواه ليس بذي ود

ويقول أحمد شوقي على لسان قيس بن الملوح مصورا شوقه الى لقاء حبيبته :

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠١ .

اذا طاف قلبي حولها جُن شوقه كذلك يطفي الغلة المنهل العــذب
يحن اذا شطت ويصبــو اذا دنت فيا ويح قلبي كم يحن وكم يصبــو

هذا هو القول الاول ، وبعضهم يقول ان الشوق يسكن باللقاء ، والاشتياق لا يزول باللقاء ، كقول من قال :

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيتــه حتى يعود اليــه الطرف مشتاقــا

والشوق كما ذكر ابن القيم ثلاث درجات ، أو ثلاثة أنواع :

١ ــ شوق العابد الى الجنة ، ليأمن الخائف ، ويفرح الحــزين ، ويظفــر الامل .

٢ ــ الشوق الى الله عز وجل ، لأن رؤية الله أطيب ما في الجنة .

٣ ــ الشوق الذي يضرمه صفو المحبة لله جل جلاله .

ولقد كان سيدنا وقائدنا ورائدنا رسول الله محمد عليــه الصــلاة والسلام دائم الشوق الى لقاء الله عز وجل ، لم يسكن شوقــه الى لقــائه قط ، وكان من دعائه صلوات الله وسلامه عليــه لربه عز شأنه : « أسألك لذة النظر الى وجهك ، والشوق الى لقائك » .

وظل الرسول يشتاق الى لقاء ربه ، ويناجي مولاه : اللهم اني أحببت لقاءك فأحبب لقائي . وفي آخر خطبة خطبها في حياته قال فيها : ان الله خيَّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله .

وروي أنه خطب فقال : ان رجلا خيَّره ربُّه بين أن يعيش في الدنيا ما شاء أن يأكل منها ، وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه .

ولقد وصف الحديث النبوي أهل الجنة بأنهم أشوق شيء الى رؤية ربهم وسماع كلامه .

ولقد تحدث الصوفية كثيرا ـ على طريقتهم ـ عن الشوق الى لقاء الله عز وجل فقد سئل رويم البغدادي عن الشوق ، فقال : ان تشوقه آثار المحبوب ، وتغنيه مشاهدته .

وقال أبو علي الجوزجاني « السابقون هم المقربون بالعطيات » ، والمرتفعون في المقامات ، وهم العلماء بالله من بين البرية ، عرفوا الله حق معرفته ، وعبدوه باخلاص العبادة ، وأووا اليه بالشوق والمحبة، وهم الذين قال الله عز وجل فيهم : « وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار » .

وقال أبو حفص النيسابوري : « من تجرع كأس الشوق يهيم هياما لا يفيق الا عند المشاهدة واللقاء » .

ويقول يحيى بن معاذ : « الهي ، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك ، وأحب الساعات الي ساعة يكون فيها لقاؤك » .

ويقول عبدالله الانطاكي : « خلق الله القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحو الشهوات من القلوب الا خوف مزعج ، أو شوق مقلق » .

نسأل الله جل جلاله أن يهبنا الشوق الدائم الى لقائه وان يكتب لنا نعيمه في ساحة رضوانه ، انه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

الفرار الى الله

الفرار كلمة تدل على الهرب من شيء مخوف . وتفاروا : تهاربوا . والمفر : جيد الفرار . والفرفرة : التمزيق ، وفي حديث عون بن عبدالله عن أبي حازم سلمة بن دينار : « ما رأيت أحدا يفرفر الدنيا فرفرة هذا الاعرج » أي يذمها ويمزقها بالذم والوقيعة فيها . وفرفر : أسرع وقارب الخطو . والفرفور : الغلام الشاب .

والفرار الى الله خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم ، ومعناه أن يلجأ الانسان دائما الى حمى ربه وساحته ، فيفر من أسباب العقاب الى أسباب الرحمة والثواب ، ويفرد الله وحده بالعبادة والطاعة لا يشرك به أحدا سواه ، وهذه الفضيلة تتحقق على وجهها اذا بذل الانسان ما في وسعه لاداء ما فرضه الله عليه ، واتيان ما يحبه ربه ويرتضيه ، ويواظب على المحاسبة والمراقبة ، حتى يكون مع الله في أحواله جميعها .

وقد وردت مادة الفرار في قوله تبارك وتعالى من سورة الذاريات :

« فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، وَلَا تَجْعَلُوا

مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ إنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ »[1] .

يقول الطبري في معنى هذا النص الكريم ما خلاصته : اهربوا أيها الناس من عقاب الله الى رحمته بالايمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته، اني لكم من الله نذير أنذركم عقابه وأخوفكم عذابه الذي أحله بهؤلاء الامم الذين قص عليكم قصصهم ، والذي هو مذيقهم في الآخرة ، وهو مبين لكم انذاره . ولا تجعلوا أيها الناس مع معبودكم الذي خلقكم معبودا آخر سواه ، فانه لا معبود تصلح له العبادة غيره . اني لكم أيها الناس نذير من عقابه على عبادتكم الها غيره ، وأنا نذير مبين قد أبان لكم انذاره .

والآيات التي وردت في سورة الذاريات تسير هكذا :

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ، وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَفِرُّوا إلى اللهِ إنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ إنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ »[2] .

وقد أشار الفخر الرازي الى أن هذا النص فيه لطائف :

الاولى : قوله تعالى ففروا ينبيء عن سرعة الإهلاك ، كأنه يقول : ان الاهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الابطاء في الرجوع ، فافزعوا الى الله سريعا وفروا .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٠ و ٥١ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية ٤٧ ـ ٥١ .

الثانية : قوله تعالى « الى الله » بيان المهروب اليه ، ولم يذكر الذي منه الهرب لاحد وجهين :

اما لكونه معلوما وهو هول العذاب ، أو الشيطان الذي قال فيه : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » واما ليكون عاما ، كأنه يقول : كل ما عدا الله عدو لكم ، ففروا الى الله من كل ما عداه . وبيانه هو أن كل ما عداه يتلف عليك رأس مالك ، وهو العمر ، ويفوت عليك ما هو الحق والخير ، ومتلف رأس المال ومفوت الكمال عدو . وأما اذا فررت الى الله ، وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ، ولكنه يرفع أمرك ، ويعطيك بقاء لا فناء معه .

الثالثة : في النص تنويع للكلام وفيه فائدة بيانها أن الله تعالى قال : والسماء بنيناها ، والارض فرشناها ، ومن كل شيء خلقنا ، ثم جعل الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين ، ولم يقل : ففروا الينا وذلك لان اختلاف الكلام له تأثير ، وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثير ، ولهذا يكثر الانسان من النصائح مع ولده الذي حاد عن جادة الصواب ، ويجعل الكلام مختلفا : نوعا ترغيبا ، ونوعا ترهيبا وتنبيها بالحكايات ثم يقول لغيره تكلم معه ، لعل كلامك ينفع لما في أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر ، والله تعالى ذكر أنواعا من الكلام ، وكثيرا من الاستدلالات والآيات .

ويذهب تفسير « في ظلال القرآن » الى أن الله تبارك وتعالى في ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهادئة المدى في أجواز الفضاء ، وفي آماد الارض ، وفي أعماق الخلائق ، يهتف بالبشر ليفروا الى خالق السماء والارض والخلائق ، متجردين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها ، موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك : « ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله الها آخر اني لكم منه نذير مبين ».

والتعبير بلفظ الفرار ــ كما يذكر التفسير ــ عجيب حقــا ، وهــو يوحي بالاثقال والقيود والاغلال والارهاق ، التي تشد النفس البشرية الى هذه الارض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في عقال، وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالاسباب الظاهرة للنصيب الموعود ، ومن ثم يجيء الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار الى الله من هذه الاثقال والقيود ... الفرار الى الله وحده منزها عن كل شريك ، وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر « اني لكم منــه نذير مبــين » ... وتكرار هذا التنبيه في آيتين متجاورتين زيادة في التنبيه والتحذير .

ويرى القشيري ان معنى الفرار الى الله هو الرجوع الى الله ، لان الانسان باحدى حالتين ، اما حالة رغبة في شيء ، او حال رهبة من شيء ، أو حال رجاء أو حال خوف ، أو حال جلب نفع أو دفع ضر ، وفي الحالتين ينبغي أن يكون فرار الانسان الى الله تعالى ، فان النافع الضار هو اللــه جل جلاله .

ويقال : من صح فراره الى الله صح قراره مع الله . ويقال : يجب على العبد أن يفر من الجهل الى العلم ، ومن الهوى الى التقى ، ومن الشك الى اليقين ، ومن الشيطان الى الله .

وقد وردت مادة الفرار أيضا في سورة الشعراء في قوله تعالى عــلى لسان موسى عليه السلام :

« فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » (١) .

أي ففررت منكم معشر الملأ من قوم فرعون لما خفت ان تقتلوني بقتل

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١ .

القتيل منكم ، فوهب لي ربي نبوة ــ وهي الحكم ــ وألحقني بعداد من أرسلهم الى خلقه ، مبلغا عنه رسالته اليهم ، بارساله اياي اليك يا فرعون .

والفرار كما قالوا نوعان : فرار السعداء وفرار الاشقياء ، ففرار السعداء الى الله ، كما قال الله تعالى : « ففروا الى الله » . وفرار الاشقياء، وهو والعياذ بالله فرار من الله لا الى الله ، وهؤلاء هم أصحاب العاقبة السيئة وبئس المصير . وقد قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في شأن الفارين السعداء : فروا من الله الى الله وعملوا بطاعته ، أي هربوا من عذاب الله الى ثوابه بالايمان والطاعة .

وقال سهل بن عبدالله عنهم : فروا مما سوى الله الى الله عز وجل .

وقد تحدث ابن القيم عن فضيلة « الفرار الى الله » في كتابه «مدارج السالكين» عن درجات الفرار الى الله فجعلها ثلاث درجات :

الاولى : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ، أي اعتقادا وسعيا ونفعا بالعمل الصالح ، والجهل هو عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ، وقد قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل ما عصي الله به فهو جهالة .

ويشمل هذا الفرار الفرار من داعي الكسل الى التشمير بالجد وصدق العمل ، واخلاصه من شوائب الفتور والتهاون ، ويشمل هذا الفرار أيضا الفرار من ضيق الصدر بالهموم والاحزان والمخاوف الى سعة الثقة بالله ، وحسن الرجاء لجميل صنعه ولطفه وبره ، فالله تعالى يجعل لمتقيه من كل ضيق مخرجا ، فانه كلما كان العبد حسن الظن بالله ، حسن الرجاء فيه ، صادق التوكل عليه ، فان الله لا يخيب أمله فيه البتة . فانه سبحانه لا يخيب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل .

الثانية : فرار الخاصة وهو الفرار من ظواهر العلم والعمل الى حقائق

الايمان ومعاملات القلوب ، ومن حظوظ النفس ورغباتها الى التجرد لعبادة الله عز وجل ، فصاحب هذا التجريد لا يقنع من الله بأمر يسكن اليه دون الله . ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسى على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني برتبة شريفة ، وان عظمت عنده أو عند الناس ، فلا يستغني الا بالله ، ولا يفتقر الا الى الله ، ولا يفرح الا بمرافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن الا على ما فاته من الله ، ولا يخاف الا من سقوطه من عين الله واحتجاب الله عنه ، فكله بالله ، وكله لله ، وكله مع الله ، وسيره دائما الى الله .

الثالثة : فرار خاصة الخاصة : وهو الفرار مما دون الحق الى الحق .

وهناك فرار لا فائدة له ولا جدوى من ورائه كقول القرآن في سورة الاحزاب :

« قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتَ أَوِ القَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً » (1) .

وقوله تعالى في سورة الجمعة :

« قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (2) .

وتحدث القرآن عن نوع معيب من الفرار ، وهو الفرار من التبعة والواجب ، كقوله في سورة الاحزاب :

---

(1) سورة الاحزاب ، الآية ١٦ .
(2) سورة الجمعة ، الآية ٨ .

« وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِراراً »[1] .

وكقوله في سورة نوح :

«دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً ،فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلا فِراراً »[2] .

ولأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم الله وجهه في كتابه « نهج البلاغة » كلمات بليغة في الاشارة الى الفرار الى الله ، عن طريق التقوى ، والاعراض عن الدنيا والاستعداد للقاء الموت ، ومن ذلك قوله : « أيها الناس ان أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى وطول الامل ، فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، واما طول الامل فينسي الآخرة. ألا وان الدنيا قد ولت حذّاء (أي مسرعة) ، فلم يبق منها الا صبابة (بقية) كصبابة الاناء اصطبها صابها . ألا وان الآخرة قد أقبلت ، ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فان كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة ، وان اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » .

وفي موطن ثان يخاطب الناس بقوله : « انظروا الى الدنيا نظر الزاهدين فيها ، الصادفين عنها ، فانها والله عما قليل تزيل الناوي الساكن ، وتفجع المترف الآمن ، لا يرجع ما تولى منها فأدبر ، ولا يدرى ما هو آت منها فينتظر ، سرورها مشوب بالحزن ، وجلد الرجال فيها الى الضعف

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ١٣ .

(٢) سورة نوح ، الآية ٥ ــ ٦ .

والوهن . فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها ، لقلة ما يصحبكم منها . رحم الله امرأ تفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن ، وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل ، وكل معدود منقض ، وكل متوقع آت ، وكل آت قريب دان » .

وفي موضع ثالث يقول : «أيها الغافلون غير المغفول عنهم، والتاركون المأخوذ منهم ، مالي أراكم عن الله ذاهبين ، والى غيره راغبين ، كأنكم نعم أراح بها سائم الى مرعى وبي" ومشرب دوي" (وبيل) ، انما هي كالمعلوفة للمدى (السكاكين) لا تعرف ماذا يراد بها ، اذا أحسن اليها تحسب يومها دهرها ، وشبعها أمرها » .

وفي موطن آخر يقول : « أيها الناس ، انما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، من قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتم ، ان المرء اذا هلك قال الناس ما ترك ؟. وقالت الملائكة : ما قد"م ؟. فقدموا بعضا يكن لكم ، ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم » .

نسأل الله تباركت آلاؤه وعمت نعماؤه ، أن يجعلنا من الذين يفرون اليه رجاء رضوانه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم.

السلوك

السلوك معناه في لغة العرب : النفاذ في الطريق، يقال سلكت الطريق سلوكا اذ امضيت فيه ، والمسلك أيضا : الطريق ، وسلك يده في جيبه أدخلها فيه ، والسلكى الامر المستقيم على طريقة واحدة . ومن أقوالهم المأثورة : خذ في مسالك الحق . وقد وردت مادة السلوك في مواطن من القرآن الكريم ، ففي سورة النحل قوله تعالى مخاطبا النحل :

« ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً »[1].

ويقول القرآن في سورة طه :

« الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً »[2].

ويقول في سورة الزمر :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ في

(١) سورة النحل ، الآية ٦٩ .
(٢) سورة طه ، الآية ٥٣ .

الأَرْضِ » [1] .

ويقول في سورة نوح :

« لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً » [2] .

ويقول في سورة القصص :

« اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » [3] .

وقد روي أنه قيل لموسى : أدخل يدك في جيبك لان المدرعة التي كانت عليه لم يكن لها كم ، وفي هذا اشارة الى أنه ينبغي على المرء للوصول الى مراده ومقصوده ان يتشمر وأن يجد .

والسلوك بالمعنى الاخلاقي الاسلامي هو الاتجاه الى الله تبارك وتعالى ، والاخذ في الطريق الموصل الى مرضاته ، والذي لا يسلك الانسان طريقا أقوم منه ، والتنزيل يقول :

« وأَنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [4] .

وهذا الخلق يقتضي حسن السلوك والسير في الطريق الموصل الى الله ، فلا يلتفت عنه ، ولا يمد عينيه الى غيره ، بل يمضي في مسيرته بجد واجتهاد .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٢١ .
(٢) سورة نوح ، الآية ٢٠ .
(٣) سورة القصص ، الآية ٣٢ .
(٤) سورة الانعام ، الآية ١٥٣ .

وأساس السلوك والسير الى الله تعالى ثلاث فضائل ، هي الحب والخوف والرجاء ، لانها هي التي تحث على عمارة وقت الانسان بما هو الاولى بصاحبه والانفع له ، ولذلك قال العلماء انها قطب رحى العبودية ، وعليها دارت رحى الاعمال ، وقد جمع الله عز شأنه هذه الامور الثلاثة في قوله :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً » [1] .

وقد تحدث الامام السلفي ابن قيم الجوزية في كتابه الجليل «مدارج السالكين» عن فضيلة السلوك في أكثر من موطن ، وقد أشار أولا ما يفيد أن تمام السلوك يتحقق بأن يربط الله تعالى على قلب العبد السالك اليه ، وقد ذكر الحديث الصحيح الذي يقول : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر — بعد اذ أنقذه الله منه — كما يكره أن يقذف في النار » وذكر الآية الكريمة من سورة الكهف :

« وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً » [2] .

فهؤلاء الذين قيل فيهم ذلك كانوا بين قومهم الكفار ، في خدمة

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٥٧ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٤ .

ملكهم الكافر ، فما هو الا أن وجدوا حقيقة الايمان والتوفيق ، وذاقوا حلاوته ، وباشر قلوبهم ، فقاموا من بين قومهم وقالوا : ربنا رب السماوات والارض ، لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا ، والربط على قلوبهم يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت ، وتقويتها بنور الايمان .

والعبد المؤمن سائر الى الله ، لا ينقطع سلوكه اليه ما دام على قيد الحياة ، وهو لا يصل ما دام حيا الى الله وصولا يستغني به عن السير اليه البتة ، بل يشتد سيره الى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده واسمائه وصفاته جل جلاله ، ولهذا كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أعظم الخلق اجتهادا وقياما بالاعمال ، ومحافظة عليها الى أن توفاه الله تعالى ، وهو أعظم ما كان اجتهادا وقياما بوظائف العبودية ، فلو أن العبد آتى بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير الى الله ، وكان على الدوام في طريق الطلب والارادة .

ومن السالكين ــ كما يذكر ابن القيم ــ من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من سيره بقلبه وروحه ، ومنهم من يكون سيره بقلبه أغلب عليه ، ومنهم من يعطي كل مرتبة حقها ، فيسير الى الله ببدنه وجوارحه ، وقلبه وروحه ، وهؤلاء هم الاقوياء الكاملون . وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنهم دائما في مقام الارادة له ، فقال تعالى :

« وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » [1] .

وقال تعالى :

« وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ

(١) سورة الانعام ، الآية ٥٢ .

الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى » [1] .

فالعبد أخص أوصافه أن يكون مريدا صادق الارادة ، بحيث يكون مراده تبعا لمراد ربه الديني منه ، ليس له ارادة في سواه .

ويذكر صاحب المدارك ان السلوك يصح ويكمل اذا سلم من الآفات والعوائق والقواطع ، وذلك بثلاثة أشياء :

الاول : أن يكون على الدرب الاعظم وهو الدرب النبوي المحمدي .

الثاني : أن لا يجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة .

الثالث : أن يكون في سلوكه ناظرا الى المقصود .

ويقرر ابن القيم أن السالك يحصر همته في أمرين وهو في مسيرته نحو ربه هما : استفراغ القلب في صدق الحب ، وبذل الجهد في امتثال الامر ، ويتوسع في بسط ذلك المعنى بقوله : « فان السالك الى ربه لا تزال همته عاكفة على أمرين : استفراغ القلب في صدق الحب ، وبذل الجهد في امتثال الامر . فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته وآثار صفاته وأسمائه . ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانا . ويبدو أحيانا . يبدو من عين الجود . ويتوارى بحكم الفترة . والفترات أمر لازم للعبد . فكل عامل له شِرة ، ولكل شرة فترة . فأعلاها فترة الوحي . وهي للانبياء ، وفترة الحال الخاص للعارفين ، وفترة الهمة للمريدين . وفترة العمل للعابدين . وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة ، والتعرفات الالهية ، وتعريف قدر النعمة . وتجديد الشوق اليها ، ومحض التواجد اليها وغير ذلك .

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد ، حتى تستقر ، وينصبغ بها

---

(١) سورة الليل ، الآية ١٩ ــ ٢١ .

قلبه ، وتصير الفترة غير قاطعة له . بل تكون نعمة عليه ، وراحة له ، وترويحا وتنفيسا عنه . فهمة المحب اذا تعلقت روحه بحبيبه ، عاكفا على مزيد محبته ، وأسباب قوتها . فهو يعمل على هذا . ثم يترقى منه الى طلب محبة حبيبه له . فيعمل على حصول ذلك . ولا يعدم الطلب الاول، ولا يفارقه البتة . بل يندرج في هذا الطلب الثاني . فتتعلق همته بالامرين جميعا . فانه انما يحصل له منزلة « كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به » بهذا الامر الثاني ، وهو كونه محبوبا لحبيبه . كما قال في الحديث « فاذا أحببته كنت سمعه وبصره الخ » فهو يتقرب الى ربه ، حفظا لمحبته له ، واستدعاء لمحبة ربه له . فحينئذ يشد مئزر الجد في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب اليه ، فقلبه : للمحبة والانابة والتوكل ، والخوف والرجاء . ولسانه : للذكر وتلاوة كلام حبيبه . وجوارحه : للطاعات . فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه .

وهذا هو السير المفضي الى هذه الغاية التي لا تنال الا به. ولا يتوصل اليها الا من هذا الباب ، وهذه الطريق . وحينئذ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك : من الحضور ، والهيبة ، والمراقبة ، ونفي الخواطر ، وتخلية الباطن » .



وقد جاءت مادة السلوك في السنة النبوية المطهرة ، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما روى البخاري : « من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا من طرق الجنة » وذلك لان العلم الصحيح يوفق للاعمال الصالحة الموصلة الى الجنة ، وطلب العلم من اسباب الوصول الى الجنة .

وهناك حديث خاطب به الرسول عمر بن الخطاب ، وفي هذا الحديث رمز الى أن عمر رضي الله عنه كان من خيرة المتجملين بفضيلة السلوك الى

ربهم ، والاستقامة على طريق عبادتهم ، ولذلك كان يفر منــه الشيطان ، ومعنى هذا أنه لا يوسوس اليه ولا يضله عن سواء السبيل ، فذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه : « يا عمر ، ما لقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا غيره » .

كما ان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أثنى على الانصار بما يفيد أنهم سلكوا الصراط المستقيم في مسيرتهم وتصرفاتهم ، حتى أصبحوا قدوة تحتذى بين الناس ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لو سلكت الانصــار واديا أو شعبا لسلكت وادي الانصار أو شعبهم » وأورد البخاري مــع هذه الرواية رواية أخرى تقول : « لو أن الانصار سلكوا واديا أو شعبا لسلكت في وادي الانصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار » وقد أراد بذلك حسن موافقتهم ، وليس المراد ان يصير تابعا لهم صلوات اللــه وسلامه عليه ، والانصار هم الذين قــال فيهم : « الانصــار لا يحبهم الا مؤمن ، ولا يبغضهم الا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله » .

وفي بعض الاحاديث النبوية أفهمنا سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن السلوك قد يكون سيرا حسيا ، وقد يكون سريانا روحيــا ، وقد يكون جولانا فكريا ، وقد يشير الى بعض هذا قوله عليــه الصــلاة والسلام لمن كانوا يصحبونه في الجهاد : « ان قوما خلفنا بالمدينــة مــا سلكنا شعبا ولا واديا الا وهم معنا ، حبسهم العذر » .

فقوله عليه الصلاة والسلام : « الا وهم معنا » قد نفهم منه أن هذه المعية الروحية القلبية نوع كريم من تعلق همم هؤلاء المحبوسين واتجــاه أفكارهم وقلوبهم نحو خطوات هؤلاء المجاهدين في سبيل الله ، فهم لا يخطون خطوة في جهادهم ، ولا يسلكون طريقا ولا واديا الا وكان هؤلاء المحبوسون سالكين مع أولئك المجاهدين .

نسأل الله جل جلالـه أن يوفقنـا برحمته ورعايتـه لكي نكون من السالكين في طريقه المشغولين بطاعته الموفقين لمرضاته ، وعلى الله قصـد السبيل .

* * *

الغــيرة

الغيرة : ــ بفتح الغين ــ هي الحمية والأنفة ، ويقال : غار الرجــل على امرأته ، وغارت المرأة على رجلها ، والمرأة الغيور هي من تغار ، والرجل المغيار : الشديد الغيرة . ويعرف البعض الغيرة بأنهــا تغــير في القلب ، وهيجان الغضب لارادة الانتقام ، وقد يفهم بعض الناس أن الغيرة مقصورة على غيرة الزوج على زوجته . أو غيرة الزوجة عــلى زوجهــا ، ولكن معنى الغيرة يتسع حتى يشمل الغيرة على الحريات والقيم، والغيرة على الــدين والعقيدة ، والغيرة على كل ما يعتز به العاقل الفاضل .

والغيرة بهذا المفهوم فضيلة محمودة ، وهي كما قال العلماء خلق من أخلاق الله تبارك وتعالى ، ولذلك وصفها ابن القيم بأنها جليلة المقدار ، لها « منزلة شريفة عظيمة جدا » . وكأنه أراد أن ينبهنا الى انها خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم . وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم . فقرر في كتابه : « مدارج السالكين » أن الغيرة منزلة من منازل « اياك نعبد واياك نستعين » .

وقد أراد أن يستخلص معناها من القرآن المجيد . فذكر أن ممــا يدخل في الغيرة بالمعنى الاخلاقي قول الله تبارك وتعالى :

« وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً » [1]

واستشهد بأن السري قال لاصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ حجاب الغيرة ولا أحد أغير من الله . ان الله تعالى لم يجعل الكفار ، أهلا لفهم كلامه ، ولا أهلا لمعرفته وتوحيده ومحبته ، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابا مستورا عن العيون ، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلا له .

وكذلك عقد الهروي في كتابه «منازل السائرين» فصلا جعل عنوانه: « باب الغيرة » استشهد فيه بقول الله عز وجل حاكيا عن نبيه سليمان عليه السلام : « ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والاعناق » وأوضح ابن القيم وجه الاستشهاد بالآية الكريمة ، فذكر ان سليمان عليه السلام كان يحب الخيل ، فشغله استحسانها والنظر اليها ــ لما عُرضت عليه ــ عن صلاة النهار ، حتى توارت الشمس بالحجاب ، فلحقته الغيرة لله من الخيل، اذ استغرقه استحسانها والنظر اليها عن الخدمة لمولاه وأداء حقه ، فقال : « ردوها عليَّ » ، فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله تعالى .

والغيرة كما يرى ابن القيم نوعان : غيرة من الشيء ، وهي كراهية الانسان مزاحمة الشيء له ومشاركته له في محبوبه ، وغيرة على الشيء ، وهي شدة حرص الانسان على المحبوب ، لخوفه ان يفوز به غيره ، أو يشاركه في الفوز به .

والغيرة أيضا عند رجال القلوب والارواح نوعان ، غيرة الحق تبارك وتعالى على عبده ، وغيرة العبد لربه . فغيرة الله على عبده هي أن لا يجعله

(١) سورة الاسراء ، الآية ٤٥ .

للناس عبدا ، بل يتخذه لنفسه عبدا فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ، بل يفرده لنفسه ، ويضن به على غيره .

وغيرة العبد لربه نوعان : غيرة من نفسه ، وهي أن لا يجعل شيئا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه تبارك وتعالى ، وغيرة العبد من غيره ، وهي أن يغضب الانسان ويغار من غيره اذا رأى محارم الله جل جلاله ينتهكها منتهكون ، أو يتطاول عليها متطاولون ، أو رأى حقوق الله جل جلاله يتهاون بها متهاونون ...

يقول ابن القيم : « وغيرة العبد من نفسه أهم من غيرته من غيره . فانك اذا غرت من نفسك صحت لك غيرتك لله من غيرك ، واذا غرت له من غيرك ، ولم تغر من نفسك ، فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد ، فتأملها وحقق النظر فيها .

فليتأمل السالك اللبيب هذه الكلمات في هذا المقام ، الذي زلت فيه أقدام كثير من السالكين والله الهادي والموفق المثبت » .



واذا انتقلنا الى روضة السنة النبوية المطهرة وجدنا الحديث الصحيح المروي عن عبدالله بن مسعود ، وفيه يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ما أحد أغير من الله ، ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما أحد أحب اليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه ، وما أحد أحب اليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » .

وحسب الغيرة شرفا وقدرا أن يخبرنا هذا الحديث انها خلق من أخلاق الله عز شأنه ، والحديث يشير في صدره الى قول الله تبارك وتعالى في سورة الاعراف :

« قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ ، والإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ » [1] .

وقد تكرر ذكر الغيرة في السنة المطهرة ، فجاء في الحديث المروي عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله يغار ، وان المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حُرِّم عليه » .

وجاء في الحديث أيضا : « اني لغيور ، وما من امرىء لا يغار الا منكوس القلب » أي ضعيف مغلوب القلب .

ومن أعلام الصحابة المشهورين بالغيرة أبو ثابت سعد بن عبادة بن دليم الانصاري الساعدي ، شهد بدرا ، وهو صاحب راية الانصار في المشاهد كلها ، وكان سيدا جوادا ، صاحب رياسة وسيادة ، وكان محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، معظما لشأنه ، فقد روى ابنه قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله . فرد سعد ردا خفيا . فقلت : ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟. قال : دعه يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد فقال : يا رسول الله اني كنت اسمع تسليمك ، وأرد عليك ردا خفيفا لتكثر علينا من السلام . فانصرف معه رسول الله ، فأمر له سعد بماء فاغتسل ، ثم ناوله سعد ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٣٣ .

ومن مناقب سعد أنه لما كانت غزوة الخندق بذل رسول الله عليه الصلاة والسلام لعيينة بن حصن ثلث ثمار المدينة لينصرف بمن معه من غطفان ، واستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة دون سائر الناس ، فقالا للنبي: يا رسول الله ، ان كنت أمرت بشيء فافعله، وان كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم الا السيف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بشيء ، وانما هو أمر أعرضه عليكما . فقالا : يا رسول الله ، ما طمعوا بذلك بنا قط في الجاهلية فكيف اليوم ، وقد هدانا الله بك ؟. فسر النبي عليه صلوات الله وسلامه بكلامهما .

وكانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد سعد بن عبادة يوم الفتح ، فمر بها على ابي سفيان ، وكان ابو سفيان قد أسلم ، فقال له سعد: اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا .

فلما مر رسول الله في كتيبة من الانصار ناداه أبو سفيان : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ، زعم سعد أنه قاتلنا ؟. وقال عثمان وعبدالرحمن ابن عوف : يا رسول الله ، ما نأمن سعدا أن تكون منه صولة في قريش. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشا . وأخذ الرسول اللواء من يد سعد ودفعه الى ابنه قيس .

ولقد كان سعد بن عبادة رضي الله عنه غيورا شديد الغيرة ، ولقد قال ذات يوم أمام النبي : لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصفح ـ أي غير ضارب بصفحة السيف وعرضه ، بل أضربه بحده لأقتله ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، رواه الشيخان ، وزاد مسلم في روايته قوله : « من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا شخص أحب اليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين

(لئلا يكون للناس على الله حجة يوم القيامة) أي فلا تعذيب الا بعد انذار، لقول الله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولا شخص أحب اليه المدحة من الله ، من أجل ذلك وعد الله الجنة ، ولهذا وعد بالجنة ليدوم الثناء عليه جل شأنه .

هذا ومما ينبغي أن نلاحظه أن الغيرة منها غيرة يبغضها الله سبحانه، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة . ولذلك جاء في حديث سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الغيرة التي يحبها الله الغيرة في الريبة ، وأما الغيرة التي يبغضها الله فهي الغيرة في غير ريبة » .

ولذلك ورد أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه نهى عن تتبع عورات النساء . ولذلك قال الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه : « لا تكثر الغيرة على أهلك ، فترمى بالسوء من اجلك » .

ومما يذكره التاريخ الديني أن نبي الله داود عليه السلام كان فيه غيرة شديدة . وكذلك كان عمر رضي الله عنه رجلا غيورا ، ومن كلام الامام الحسن رضي الله عنه : « قبح الله من لا يغار » .

نسأل الله تباركت آلاؤه ، وعمت نعماؤه ،أن يجملنا بفضيلة الغيرة الحميدة الرشيدة ، فنغار على أعراضنا وحرماتنا ، ونغار على محارم الله وحدوده ، ونغار على الحق أن يهضم أو يهان ، انه المسؤول للهداية والتوفيق ، وعلى الله قصد السبيل .

النظر

تقول اللغة : نظر الانسان اذا رأى بعين بصره أو بعين بصيرته ، ولذلك جاء : نظره بمعنى علمه ، ونظره عُني به ، فأقبل عليه بوجهه ، ونظره عطف عليه ، ونظر الشيء : ترقب وقوعه ، ونظر الى آيات الله تبارك وتعالى : تدبر فيها وتأمل واعتبر ، ونظر في الشيء : فكر فيه ليعلم أمره . والنظر تقليب البصر والبصيرة لادراك الشيء ورؤيته وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد التروي ، ولذلك قد يقال : نظرتَ فلم تنظر ، أي نظرتَ فلم تتأمل ولم تترو . ونظر بين القوم أي حكم بينهم ، والنظر الاعتبار . والنظر الفكر في الشيء تقدره وتقيسه ، والنظور بوزن الصبور هو من لا يغفل عن النظر فيما أهمه ، والناظر هو الامين الذي يبعثه السلطان الى جماعة ليستبرىء أمرهم ، والنظر هو تقليب البصيرة في تأمل لأدراك الشيء ومعرفته بعد فحص ومن ذلك قول الله عز من قائل في سورة يونس :

« قُلِ انْظُرُوا ماذا في السَّماواتِ والأَرْضِ وما تُغْنِي الآَياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ » (١) .

---

(١) سورة يونس ، الآية ١٠١ .

واستعمال النظر في البصر أكثر استعمالا عند العامة ، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة .

والنظر بالمعنى الاخلاقي يفيد معنى التأمل والتفكر والاعتبار ، مع الترقب والحذر ، والتبين والعلم ، وصحة الحكم واستقامة النظرة ، وهو بهذا المفهوم خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم . وقد جاء ذكر هذه الفضيلة الاخلاقية في مواطن القرآن الكريم ، كقوله سبحانه في سورة الحشر :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَد وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ، وَلا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ ، لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وأَصْحابُ الجَنَّةِ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ »[1] .

أي لتتأمل كل نفس فيما قدمته بين يديها ، وعليها أن تتدبره ولا تغفل عنه وقد علق تفسير « في ظلال القرآن » على هذا النص الكريم بهذه العبارة الكاشفة : « التقوى حالة في القلب يشير اليها اللفظ بظلاله، ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها . حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله في كل حالة ، خائفا متحرجا مستحييا أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها ، وعين الله على كل قلب في كل لحظة . فمتى يأمن أن لا يراه ؟!

« ولتنظر نفس ما قدمت لغد » .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ١٨ و١٩ .

وهو تعبير كذلك ذو ظلال وايحاءات أوسع من ألفاظه .. ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته ، لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة .. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه الى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف اذا كان رصيده من الخير قليلا ، ونصيبه من البر ضئيلا ؟. انها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا ولا يكف عن النظر والتقليب.

ولا تنتهي الآية التي تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الايقاع : « واتقوا الله ان الله خبير بما تعلمون » .

فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء .. والله خبير بما يعملون ..

وبمناسبة ما تدعوهم اليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا « كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .. وهي حالة عجيبة . ولكنها حقيقة .. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده الى أفق أعلى ، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى . وفي هذا نسيان لانسانيته وهذه الحقيقة تضاف اليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى . وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادا للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد .

« أولئك هم الفاسقون » .. المنحرفون الخارجون .

وفي الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار ، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار :

« لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون » .

لا يستويان طبيعة وحالا ، ولا طريقا وسلوكا ، ولا وجهة ولا مصيرا، فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان ابدا في طريق . ولا يلتقيان أبدا في سمة، ولا يلتقيان أبدا في خطة ، ولا يلتقيان ابدا في سياسة ، ولا يلتقيان ابدا في صف واحد في دنيا ولا آخرة .

« أصحاب الجنة هم الفائزون » يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه ، معروفا . وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير .

وقد جاء في تفسير ابن كثير عن الآيات السابقة ان الله تعالى أمر بالتقوى وهي تشمل فعل المأمور به وتجنب المنهي عنه ، فالله يقول لعباده : حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم من الاعمال الصالحة ليوم عرضكم على ربكم وهو عليم بجميع اعمالكم واحوالكم ولا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل أو حقير ، ولا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل بمصالح انفسكم لان الجزاء من جنس العمل ، ولقد خطب أبو بكر الصديق ذات يوم فقال : « أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع منكم أن يقضي الاجل وهو في عمل الله عز وجل فليفعل ، ولن تنالوا ذلك الا بالله عز وجل . ان قوما جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله ان تكونوا امثالهم : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . أين من تعرفون من اخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الاولون الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار . هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة واستنصحوا كتابه وتبيانه ، ان الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال :

« إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ في الخَيْراتِ ، وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ » [1] .

لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم .

وقد وردت مادة النظر في مواطن من القرآن الكريم ، كقوله تعالى في سورة الاعراف :

« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ والأَرْضِ ومَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » [2] .

أي أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السماوات والارض ، وفي ما خلق من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص الا له ، فيؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا الى طاعته ، ويخلعوا الانداد والاوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا الى عذاب الله وأليم عقابه .

فبأي تخويف وتحذير بعد تحذير النبي وترهيبه يصدقون ، ان لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم من عند الله عز وجل .

---

(١) سورة الانبياء ، الآية ٩٠ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ١٨٥ .

وقد روي عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : رأيت ليلة أسري بي ، لما انتهينا الى السماء السابعة ، فنظرت فوقي فاذا انا برعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت ، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت الى السماء الدنيا نظرت الى أسفل مني فاذا أنا بغبار ودخان وأصوات، فقلت ما هذا يا جبريل ؟. قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والارض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب .

وفي سورة الغاشية :

« أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » (١) .

وفي سورة الاعراف :

« فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » (٢) .

وفي سورة الطارق :

« فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ » (٣) .

وهذا أحد الشعراء يلفت في شعره الانظار والبصائر الى النظر والاعتبار فيقول :

نزهة المؤمن الفكر ... لذة المؤمن العبر

نحمد الله وحده ... نحن كل على خطر

---

(١) سورة الغاشية ، الآية ١٧ .

(٢) سورة الاعراف ، الآية ٨٤ .

(٣) سورة الطارق ، الآية ٥ .

ربّ لاه وعمره	قد تقضى وما شعر
ربّ عيش قد كان فو	ق المنى مونق الزهر
في خرير من العيو	ن وظل من الشجر
وسرور من النبا	ت وطيب من الثمر
غيرته وأهله	سرعة الدهر بالغير
نحمد الله وحده	ان في ذا لمعتبر
ان في ذا لعبرة	للبيب ان اعتبر

ويقول بعض السلف : زوروا القبور كل يوم تفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظروا الى المنصرف بالفريقين الى الجنة أو النار ، واشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها ، وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط الا فهم ، وما فهم امرؤ قط الا علم ، وما علم امرؤ قط الا عمل . وقال عمر بن عبدالعزيز : الكلام بذكر الله عز وجل حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة . ويروى أن عيسى عليه السلام قال : طوبى لمن كان قوله تذكرا ، وصمته تفكرا ، ونظره عبرا .

وقد تكلم أهل التصوف عن النظر على طريقتهم وبأسلوبهم ، وهذا أبو الحسين النووي مثلا يقول : « مقامات أهل النظر في النظر شتى : فمنهم من كان نظره نظر التسلي ، ومنهم من كان نظره نظر استفادة ، ومنهم من كان نظره نظر عيان المكاشفة ، ومنهم من كان نظره نظر المنافسة في المشاهدة ، ومنهم من كان نظره نظر المشاكلة والمماثلة ، ومنهم من كان نظره نظر طيبة وملاحظة ، ومنهم من كان نظره نظر اشراف ومطالعة وكل واحد منهم من أهل النظر » . ويقول حاتم الاصم : « الشهوة ثلاثة: شهوة في الاكل ، وشهوة في الكلام ، وشهوة في النظر ، فاحفظ الاكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة » .

وقد روى الترمذي عن سيدنا ومولانا رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم : « وارزقني حسن النظر فيما يرضيك » .

نسأل الله جل جلاله أن يجملنا بفضيلة النظر المفضية الى الاعتبـار والادكار انه نعم المولى ونعم النصير .



* * *

الصفاء

تقول اللغة : الصفاء اسم للبراءة من الكدر ، والكدر هو امتزاج الطيب بالخبيث . وصافاه مصافاة : صدقه الاخاء والمودة . والصفا : الخلوص من الشوب ، من قولهم : الصفا وهو العريض الاملس من الحجارة ، وصفا الشيء خلص من الشوائب . واصطفى : اختار ، والمصطفى : المختار ، وهو اسم من اسماء سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والصفوة من كل شيء خالصه ، وصفاه تصفية استخرج صفوته، والاصطفاء تناول صفو الشيء ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو صفوة الله من خلقه .

والصفاء بمعناه الاخلاقي خلق من أخلاق القرآن الكريم وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم وجزء من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم . وقد استشهد الامام الهروي على أن الصفاء فضيلة قرآنية بقول الله تبارك وتعالى في سورة «ص» :

« وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ » [1] .

ووجه الاستشهاد كما يقول الامام ابن القيم : ان « المصطفى »

---

(١) سورة ص ، الآية ٤٧ .

مفتعل من الصفوة ، وهي خلاصة الشيء ، وتصفيته مما يشوبه ، ومنه . اصطفى الشيء لنفسه أي خلصه من شوب شركة غيره فيه ، لأن الشيء الصافي هو الخالص من كدر سواه .

وينبغي أن نلاحظ الارتباط بين الصفاء والاصطفاء ، فمن صفا وطهر وخلص لربه فقد تقبله واختاره واصطفاه ، ومن المواطن التي جاء فيها ذكر هذه الفضيلة قول الله تبارك وتعالى :

« وَاذْكُرْ عِبادَنا إبراهِيمَ وإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولي الأَيْدِي والأَبْصَارِ ، إنَّا أَخْلَصْناهُمْ بخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وإنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ »[1] .

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الايدي والابصار ، يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة ، والبصيرة النافذة . أولي الايدي والابصار ، أي أصحاب القوة والعبادة والفقه في الدين والبصر في الحق . قال قتادة : أعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين . انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، أي جعلناهم يعملون للآخرة ، ليس لهم هم سواها ، وكما قال مالك بن دينار : نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها ، وهم يقومون بتذكير الناس الدار الآخرة والعمل لها . وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار أي من المختارين المجتبين الاخيار ، فهم أخيار مختارون .

وقد جاء في تفسير « ظلال القرآن » أن الله سبحانه يصف ابراهيم

---

(١) سورة ص ، الآية ٤٥ ــ ٤٧ .

واسحاق ويعقوب بأنهم أصحاب الايدي والابصار ، وهذا كناية عن العمل الصالح بالايدي والنظر الصائب أو الفكر السديد بالابصار ، وكأن من لا يعمل صالحا لا يد له ، ومن لا يفكر تفكيرا سليما لا عقل له ، أو لا نظر له .

ويذكر من صفتهم التكريمية أن الله أخلصهم بصفة خاصة ليذكروا الدار الآخرة ، ويتجردوا من كل شيء سواها ، فهذه ميزتهم ورفعتهم ، وهذه جعلتهم عند الله مختارين : « وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار » .

ويقول الله تعالى في سورة فاطر :

« ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بالخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فيها حَرِيرٌ » [1] .

جاء في تفسير الرازي أنه اتفق أكثر المفسرين على أن المراد بالكتاب هنا هو القرآن ، وعلى هذا فالذين اصطفيناهم هم الذين أخذوا بالكتاب ، وهم المؤمنون والظالم والمقتصد كلهم منهم ، ويدل عليه قوله تعالى : « جنات عدن يدخلونها » فقد أخبر بدخولهم الجنة ، وكلمة « ثم أورثنا » أيضا تدل عليه ، لان الايراث اذا كان بعد الايحاء ، ولا كتاب بعد القرآن، فهو الموروث ، والايراث المراد منه الاعطاء ، والمعنى : انا اعطينا الكتاب الذين اصطفينا ، وقد افترق الذين أخذوا هذا الكتاب ، فمنهم ظالم وهو

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٢ و٣٣ .

المسيء ، ومقتصد وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وسابق بالخيرات وهو الذي أخلص العمل لله ، وجرده عن السيئات .

وقد قسم العلماء الصفاء الى ثلاث درجات ، فهناك صفاء مهذب لسلوك الطريق ، وهو العلم الصافي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو علم مقيد بالكتاب والسنة ، وهما اللذان تجب متابعتهما ، وملازمة ما سلكه الاولون من التقيد بهما ، وترك ما أحدثه الآخرون ، فهذا ــ كما يقول ابن القيم ــ هو العلم الصافي المتلقى من مشكاة النبوة والوحي ، يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية ، وحقيقتها التأدب بآداب رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا ، وتحكيمه ظاهرا وباطنا ، والوقوف معه حيث وقف بك ، والمسير معه حيث سار بك ، لأنه قد ألقيت اليه أمرك كله ، واقتديت به في جميع أحوالك ، فأنت خالص له ، وأنت مثال الصفاء معه ، ترضى لرضاه ، وتغضب لغضبه .

والدرجة الثانية من درجات الصفاء يسمونها صفة الحال ، والحال ثمرة العلم ، ولا يصفو الحال الا بصفاء العلم ، واذا صفا العلم والحال تحققت للانسان فضيلة الصفاء ، وفي هذه الدرجة يذوق الانسان حلاوة المناجاة ، « واذا صفا الحال شاهد العهد بصفائه آثار الحقائق ، وهي الشواهد فيه وفي غيره وعليه وعلى غيره ، ووجد حلاوة المناجاة » . لأنه متى صفا له حاله من الشوائب خلصت له حلاوته من مرارة الاكدار ، فذاق تلك الحلاوة في حال مناجاته فلو لم يكن الحال صافيا ، وكان مشوبا مكدرا لم يجد حلاوة المناجاة .

الدرجة الثالثة صفاء الاتصال ، أي اتصال العبد بربه ، ووصوله اليه جل وعلا حيث يزيل العبد بتوفيق ربه من طريق السير الى خالقه عوائق النفس والناس ، يقول في ذلك ابن القيم : « فان السالك لا يزال سائرا الى الله تعالى حتى يموت ، فلا ينقطع سيره الا بالموت ، فليس في هذه الحياة وصول يفرغ معه السير وينتهي ، وليس ثمة اتصال حسي بين ذات

العبد وذات الرب ، فالاول تعطيل والحاد ، والثاني حلول وإتحاد ، وانما حقيقة الامر تنحية النفس والخلق عن الطريق ، فان الوقوف معهما هو الانقطاع ، وتنحيتهما هو الاتصال .

وأما الملاحدة القائلون بوحدة الوجود فانهم قالوا : «العبد من أفعال الله وأفعاله من صفاته ، وصفاته من ذاته ، فأنتج لهم هذا التركيب أن العبد من ذات الرب تعالى الله وتقدس عما يقولون علوا كبيرا » .

وأما المؤمن المطيع ، الخالص المخلص ، فهو الذي صفا له علمه وحاله، واندرج علمه جميعه وأضعاف أضعافه في حق ربه تبارك وتعالى ، ورآه في جنب حقه أقل من خردلة بالنسبة الى جبال الدنيا — ولله المثل الاعلى — فهو من صفائه واخلاصه لربه لا يطلب من خالقه اثابة على عمله ، لاحتقاره له وقلته عنده وصغره في عينه . وقد روى الامام أحمد كما في « مدارج السالكين » : ان الله تعالى أوحى الى داود : يا داود أنذر عبادي الصادقين فلا يعجبن بأنفسهم ولا يتكلن على أعمالهم ، فانه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب ، وأقيم عليه عدلي الا عذبته ، من غير أن أظلمه ، وبشر عبادي الخطائين أنه لا يتعاظمني ذنب : أن أغفره وأتجاوز عنه .

كما روى الامام أحمد عن ثابت البناني قال : تعبد رجل سبعين سنة ، وكان يقول في دعائه : رب اجزني بعملي ، فمات فادخل الجنة فكان فيها سبعين عاما ، فلما فرغ وقته قيل له : اخرج فقد استوفيت عملك . فقلب أمره : أي شيء كان في الدنيا أوثق في نفسه ؟ فلم يجد شيئا أوثق في نفسه من دعاء الله والرغبة اليه ، فأقبل يقول في دعائه : رب سمعتك وأنا في الدنيا وأنت تقيل العثرات ، فأقل اليوم عثرتي ، فيُترك في الجنة ، وغاية الصفاء أن يدرك العبد أن ذاته وصفاته وأفعاله وقواه وحركاته كلها مملوكة لله ، ليس يملك العبد منها شيئا ، بل هو محض ملك الله ، فهو المالك لها ، المنعم على عبده باعطائه اياها ، فالمال ماله ، والعبد عبده ،

والخدمة مستحقة عليه بحق الربوبية ــ وهي من فضل الله عليه ، فالفضل كله لله ، والفضل كله من الله ، والفضل كله بالله .

وقد يعبر الصوفية عن فضيلة الصفاء بقولهم حسب طريقتهم : الصفاء هو سقوط التلوين ، أي ترك التردد والتذبذب ، وقد قال القائل :

كل يــوم تتلــون ترك هــذا بك أجمل

والصفاء من المؤمن ، ومصافاته لاخوانه في الدين ، مكانة يستحق بها حب الله وحب رسوله ، ويا لها من مكانة سامية ، وقد جاء في مسند ابن حنبل حديث يقول : « حقت محبتي للذين يتصافون من اجلي » .

نسأل الله عزت اسماؤه وجلت آلاؤه أن يجعلنا من عبــاده الــذين يحمدونه ويعبدونه ، فاصطفاهم اللــه بنعمته وكرمه ، حتى يكونوا من السعداء في هذه الحياة ويوم لقاء الله تبارك وتعالى .

التماس العذر للناس

العذر هو الحجة التي يعتذر بها الانسان عند خطأ ارتكبه ، أو تصرف لا يليق به ، وقيل ان العذر هو تحري الانسان ما يمحى به ذنوبه ، اما بالانكار ، أو ذكر السبب الملجىء للفعل ، أو الاعتراف والوعد بعدم العودة ، وهذا توبة .

والتماس العذر معناه رفق الانسان بالمخطىء ، وعدم مقابلة سيئته بمثلها ، بل يلتمس الانسان له عذرا ، فيعفو ويصفح ، وما زلت أذكر بيتا أخلاقيا رائعا لشاعرنا شوقي ، يقول فيه مخاطبا الانسان :

رُزقتَ أكرم ما في الناس من خلق   اذا رُزقتَ التماس العذر في الشيم

أي أن الانسان يكون على جانب كبير من مكارم الاخلاق اذا لم يقابل السيئة بالسيئة ، بل تلطف بالمذنب ، واشفق عليه ، وأضرب صفحا عن زلته ، وقدر ما يكون هناك من أسباب أو عوامل دفعت بالمذنب الى ارتكاب ما ارتكب من خطأ .

ولا شك أن تعالي الانسان عن مقابلة العدوان بالعدوان ، والصفح الجميل عن الهفوة والزلة ، خلق من اخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم .

وهذا تنزيل ربنا المجيد يحبب في المغفرة والصفح والعفو ، وعدم مقابلة السيئة بمثلها ، فيقول في سورة النور :

« وَلا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولي القُرْبَى وَالمَساكِينَ والمُهَاجِرِينَ في سَبيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [1] .

أي لا يحلف أصحاب الفضل منكم ، وأهل الاحسان والقدرة أن يوتوا الاقارب والمحتاجين ، أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين ، وليعفوا وليصفحوا عما تقدم منهم من الاساءة والاذى ، وقيل ان هذه الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق حيث حلف أن لا ينفع مسطح ابن أثاثة بمعونة بعد أن قال في الصديقة عائشة ما قال من حديث الافك ، فلما نزلت براءة أم المؤمنين ، شرع الله تبارك وتعالى يعطف الصديق على قريبه ، وكان الصديق معروفا بالعطاء والفضل ، فتأثر أبو بكر عندما سمع قوله تعالى : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » فقال : بلى والله انا نحب يا ربنا أن تغفر لنا . ثم عاد أبو بكر الى مساعدة مسطح ومعاونته ، وبمثل هذا كان الصديق هو الصديق .

ويقول الله تعالى :

« وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ،

---

(١) سورة النور ، الآية ٢٢ .

وما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذو حَظٍّ عَظِيمٍ »[1].

أي هناك فرق عظيم بين جمال الحسنة وقبح السيئة ، فادفع من أساء اليك بالاحسان اليه ، فقد قال عمر : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . فاذا أحسنت الى من أساء اليك قادته تلك الحسنة الى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك ، حتى يصير كأنه صديق قريب اليك .

وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها الا من صبر على ذلك ، فانه يشق على النفوس ، وما يتحلى بهذه الفضيلة الا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة . ولذلك أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الاساءة ، فاذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه صديق حميم .

وقد أكد القرآن المجيد هذا المعنى ، ففي سورة الاعراف يقول :

« خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ، وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [2] .

وفي سورة المؤمنون :

« ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ، وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَاطِينَ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » [3] .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ و٣٥ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ١٩٩ و٢٠٠ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٩٦ ــ ٩٨ .

وفي سورة الرعد نجد القرآن يقول في صفات أولي الالباب :

« وَيَدْرَؤُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ »[1].

أي الذين يدفعون القبيح بالحسن ، فاذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا ، وصفحا وعفوا ، وأخبر عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، فهم مخلدون في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا . وفي سورة القصص يقول القرآن عن خيار العباد :

« وَيَدْرَؤُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ »[2] .

أي يدفعون السيئة القبيحة بالحسنة الجميلة ، فهم لا يقابلون السيئة بمثلها ، بل يعفون ويصفحون ، وهم يتنزهون عن اللغو قائلين : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » .

والقرآن الكريم حيث يشرع حق المعتدى عليه في أخذ حقه وقصاصه من المعتدي يحبب في الصبر والعفو ، فيقول في سورة النحل :

« وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ »[3] .

ونجد القرآن المجيد في سورة الشورى يقول جامعا بين حق القصاص بالمثل ، وبين العفو والاصلاح :

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٥٤ .

(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٦ .

« وَالَّذِينَ إذا أَصابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ، وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ على اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ، إِنَّما السَّبِيلُ عَلى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[1] .

فيتحدث الله عن الذين توجد فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، فهم يقدرون على الانتقام ممن تطاول عليهم . ثم قرر القرآن أن السيئة تجازى بمثلها فشرع العدل في القصاص وندب الى الفضل وهو العفو ، كقوله في موطن آخر : « والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له » ولذلك قال هنا : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم : « ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا » . ثم أبان النص ان المظلومين ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم ، وانما يكون الانسان ظالما اذا بدأ بالعدوان والبغي . ومن وصايا السلف : « ان استطعت ألا تبيت الا وظهرك خفيف ، وبطنك خميص ، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم فافعل ، فانك اذا فعلت ذاك لم يكن عليك سبيل »

« إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ »[2]

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٣٩ ــ ٤٣ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٢ .

ويقول القرآن في سورة النساء :

« ان تبدو خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا » أي اذا أظهرتم أيها الناس خيرا ، أو أخفيتموه ، او عفوتم عمن أساء اليكم ، فان ذلك مما يقربكم عند الله ، ويجزل ثوابكم لديه ، فان من صفاته تعالى أنه يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم .

فالاصل في الجزاء ــ كما في ظلال القرآن ــ هو مقابلة السيئة بالسيئة ، حتى لا يتبجح الشر ويطغى ، مع استحباب العفو ابتغاء وجه الله . واصلاح النفس من الغيض ، واصلاح الجماعة من الاحقاد . والعفو انما يكون مع المقدرة ، فاذا جاء سماحة ولم يجيء ضعفا كان له وزنه وثمرته . وأما مع الضعف والعجز فهو مما ينشر الفساد في الارض. والذي ينتصر بعد ظلمه ، ويجزي السيئة بالسيئة دون اعتداء يزاول حقه المشروع، ولا سلطان لاحد عليه ، وانما يجب الوقوف في طريق الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الارض بغير الحق ، واذا حقق الانسان في نفسه الاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة عند المقدرة ، كان الصبر هنا استعلاء لا استخذاء ، وتجملا لا ذلا .

وحينما عبر القرآن عن مقابلة السيئات بالحسنة فقال : « ويدرأون بالحسنة السيئة » كان المقصود بالتعبير انهم يقابلون السيئة بالحسنة ، ولكنه تجاوز المقدمة الى النتيجة ، فمقابلة السيئة بالحسنة يكسر شرة النفوس ، ويوجهها الى الخير ، ويطفيء جذوة الشر ، ويرد نزغ الشيطان ، ومن هنا يدرأ السيئة ويدفعها في النهاية ، فعجل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية الكريمة ، ترغيبا في مقابلة السيئة بالحسنة ، وطلبا لنتيجتها المرتقبة .

ثم هي اشارة خفية الى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون في هذا

درء السيئة ودفعها لا اطماعها واستعلاءها ، وأما حين تحتاج السيئة الى القمع ، ويحتاج الشر الى الدفع فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويتوقح .

ودرء السيئة بالحسنة لون حميد من الصبر ، وهو أشد من مجرد الصبر على الايذاء والسخرية ، فيه استعلاء على كبرياء النفس ، وفيه فوق ذلك سماحة راضية ، ترد القبح بالجميل ، وتقابل الجاهل بالطمأنينة ، وهذه مكانة لا يبلغها الا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين .

ويتحدث الامام ابن القيم عن مقابلة الاساءة بالاحسان ، وهي فضيلة تتضمن التماس الاعذار للناس ، فيذكر ان كمال هذه الفضيلة لم يتحقق لاحد سوى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم للورثة « بحسب سهامهم من التركة » كما يعبر ابن القيم ، ولا عجب في ذلك ولا غرابة ، فسيدنا ورائدنا وقائدنا رسول الله هو القائل : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ويتحدث الهروي عن درجات الفتوة فيقول : ان الدرجة الثانية منها هي أن تقرب من يقصيك ، وتكرم من يؤذيك ، وتعتذر الى من يجني عليك ، سماحة لا كظما ، ومودة لا مثابرة . ويقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية : « وما رأيت أحدا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ وكان بعض أصحابه الاكابر يقول : وددت أنه لاصحابه مثله لاعدائه وخصومه . وما رأيته يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم . وجئت يوما مبشرا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له فنهرني وتنكر لي واسترجع ، ثم قام من فوره الى بيت أهله فعزاهم ، وقال اني لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه الى مساعدة الا وساعدتكم عليه .

وفي تراثنا الادبي كلمات نوابغ تدل على النبل في التماس الاعذار للناس ، فهذا هو الشاعر المؤمل بن أميل يقول :

اذا مرضنا أتيناكم نعودكم   وتخطئون فنأتيكم ونعتـذر

ويقول الهروي : « اعلم أن من أحوج عدوه الى شفاعة ، ولم يخجل من المعذرة اليه ، لم يشم رائحة الفتوة » ومعنى هذا ان الذي يستحق لقب الفتى لا يحوج غيره الى الاعتذار ، وفي التعليق على ذلك يقول ابن القيم : « يعني ان العدو متى علم انك متألم من جهة ما نالك من الاذى منه احتاج الى أن يعتذر اليك ، ويشفّع اليك شافعا يزيل ما في قلبك منه فالفتوة كل الفتوة أن لا تحوجه الى الشفاعة ، بأن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته ولا تطوي عنه بشرك ولا برك ، واذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر لم يكن لك في الفتوة نصيب » .

من هذا الباب ما قاله الهروي : كل معصية عيَّرت بها أخاك فهي لك . وقول الترمذي : « من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » .

وذكر الحارث المحاسبي أن من حسن الخلق احتمال الاذى وقلة الغضب ، وبسط الوجه ، وطيب الكلام . ويستلزم حسن الخلق أمورا منها: كتمان السيئة واحتمالها ، وعدم استجابة الغضب ، وعدم ظهور غيظ على الوجه ، والكلام الطيب الجميل .

نسأل الله جلت قدرته أن يجعلنا من الذين يلتمسون الاعذار للناس. وأن تتذكر على الدوام قول القائل :

رزقتَ أكرم ما في الناس من خلق   اذا رزقتَ التماس العذر في الشيم

وعلى الله قصد السبيل .

الأدب

اذا رجعنا الى كتاب « مدارج السالكين » للامام ابن القيم وجدناه قد جعل « الادب » منزلة أخلاقية قرآنية من منازل : « اياك نعبد واياك نستعين » . واستشهد على ذلك بقول الله تبارك وتعالى في سورة التحريم :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ » (١) .

وذلك لان عبدالله بن عباس قد قال ومعه غيره : ان معنى الآية أدِّبوهم وعلموهم . ولفظة الادب ـ كما يقول ابن القيم ـ مؤذنة بالاجتماع ، فالادب اجتماع خصال الخير في العبد ، ومنه كلمة المأدبة ، وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس ، وعلم الاول هو علم اصلاح اللسان والخطاب ، واصابة مواقعه ، وتحسين ألفاظه ، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من الادب العام .

وحقيقة الادب استعمال الخلق الجميل ، ولهذا كان الادب استخراج

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ .

ما في الطبيعة من الكمال من القوة الى الفعل . فالله سبحانه قد هيأ الانسان ، لقبول الكمال ، بما أعطاه من الاهلية والاستعداد ، وجعل هذا فيه كامنا كالنار في الزناد . فألهمه ومكنه ، وعرفه وأرشده ، وأرسل اليه رسله ، وأنزل اليه كتبه ، لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله الى الفعل ، كما قال سبحانه في سورة الشمس :

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »[1] .

فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام ، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى . وان ذلك نألها منه امتحانا واختبارا ، ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها . ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه ، وهي التقوى . ثم حكم بالشقاء على من دسَّاها ، فأخفاها وحقرها ، وصغرها وقمعها بالفجور .

وقد ذكر عبدالله بن المبارك المراد من معنى الادب في هذا المجال الاخلاقي فقال : قد أكثر الناس القول في الادب . ونحن نقول انه معرفة النفس ورعوناتها ، وتجنب تلك الرعونات . وقال سهل بن عبدالله : من قهر نفسه بالادب فهو يعبد الله بالاخلاص .

وقد عنيت السنة المطهرة بفضيلة الادب ، فروى الترمذي : « ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن » وروى ابن ماجه : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » . وربطت السنة بين الادب والقرآن فروى الدارمي : « أدب الله القرآن » . ويجعل بعض السلف مراتب الناس في الادب على ثلاث طبقات : أما اهل الدنيا فأكبر آدابهم في الفصاحة والبلاغة ، وحفظ

---

(١) سورة الشمس ، الآية ٧ ـ ١٠ .

العلوم ، وأسرار الملوك وأشعار العرب . وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات . واما أهل الخصوصية فأكبر آدابهم هي طهارة القلوب ، ومراعاة الاسرار ، والوفاء بالعهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات الى الخواطر . وحسن الادب في مواقف الطلب ، وأوقات الحضور ومقامات القرب .

ورأس أنواع الادب أدب الانسان مع الله سبحانه ، وهو أيضا ثلاثة أنواع :

الاول : صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة .

الثاني : صيانة قلبه أن يلتفت الى غيره .

الثالث : صيانة ارادته أن تتعلق بما يمقتك عليه . ولهذا يقول بعضهم: الحق سبحانه تعالى يقول : من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الادب . ويقول ابو حفص : حسن الادب في الظاهر عنوان حسن الادب في الباطن ، فالادب مع الله حسن الصحبة معه ، بايقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والاجلال والحياء . كحال مجالس الملوك ومصاحبتهم . ويقول ابن عطاء الله : الادب الوقوف مع المستحسنات ، أي أن تعامله سبحانه وتعالى بالادب سرا وعلنا . وأنشد قول الشاعر :

اذا نطقت جاءت بكل ملاحة   وان سكتت جاءت بكل مليح

وينبغي أن تتذكر أن أهل الادب والاخلاق يجعلون أدب الانسان في طاعة الله مرتبة فوق طاعة الله ، ولذلك يقول ابو علي الدقاق : العبد يصل بطاعة الله الى الجنة ، ويصل بأدبه في طاعته الى الله .

ويأتي بعد الادب مع الله الادب مع رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وهو ــ كما يصور ابن القيم ــ أن لا يتقدم بين يدي الرسول بأمر

ولا نهي ، ولا اذن ولا تصرف ، حتى يأمر النبي وينهى ويأذن ، كما قال الله تعالى في سورة الحجرات :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ » [1] .

وهذا باق الى يوم القيامة لم ينسخ ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم . قال مجاهد : لا تفتأتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : لا تأمروا حتى يأمر ، ولا تنهوا حتى ينهى .

ومن الادب مع النبي ألا ترفع الاصوات فوق صوته ، فانه سبب لهبوط الاعمال ، فما الظن برفع الآراء ونتائج الافكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبا لقبول الاعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لهبوطها؟

ومن الادب معه أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره ، قال تعالى في سورة النـور :

« لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً » [2] .

أي لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا ، بل قولوا يا رسول الله ، يا نبي الله . أو لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا ان شاء أجاب ، وان شاء ترك ، بل اذا دعاكم لم يكن لكم بد من اجابته ، ولم يسعكم التخلف عنه البتة . ومن الادب مع الرسول أنهم اذا كانوا معه على

---

(١) سورة الحجرات ، الآية الاولى .
(٢) سورة النور ، الآية ٦٣ .

أمر جامع ــ من خطبة أو جهاد أو رباط ــ لم يذهب احد منهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه ، كما قال تعالى في سورة النور :

« إِنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وإذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوه »[1] .

ومن الادب مع رسول الله أن لا نستشكل قوله ، بل نستشكل الآراء المقولة ، ولا نعارض نصه بقياس ، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا .

وأما أدب الانسان مع الخلق فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكل مرتبة أدب ، فمع الوالدين أدب خاص ، ومع العالم أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به ، ومع الاقران أدب يليق بهم ومع الاجانب أدب غير أدبه مع اصحابه ، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته ، وهكذا ...

والمثل الاعلى في الادب مع الله هو مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي قال له ربه حين أراه ما أراه :

« ما زَاغَ البَصَرُ ومَا طَغَى »[2] .

فهذا كما يشير صاحب « مدارج السالكين » الى أدبه عليه الصلاة والسلام في ذلك المقام ، اذ لم يلتفت جانبا ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الادب ، والاخلال بهذا الكمال هو أن يلتفت الناظر عن يمينه أو شماله ويتطلع أمام المنظور ، فالالتفات ــ كما نفهم عن ابن تيمية ــ زيغ ، والتطلع

---

(١) سورة النور ، الآية ٦٢ .
(٢) سورة النجم ، الآية ١٧ .

الى ما أمام المنظور طغيان . والكمال أن لا يصرف بصره يمنة ولا يسرى .

ويرى ابن القيم ان هذه الآية فيها اسرار عجيبة وفيها من دقائق الآداب ما يليق بأكمل البشر صلوات الله وسلامه عليه ، حيث اتفق هناك بصره وبصيرته ، فما شاهدته بصيرته فهو أيضا حق مشهود بالبصر . ولذلك قال التنزيل :

« مَا كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأَى ، أَفَتُمارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى » (١) .

أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره ، بل استقامت البصيرة واستقام البصر ، واعتدل البصر نحو المرئي ، ما جاوزه ولا مال عنه ، كما اعتدل القلب في الاقبال على الله ، والاعراض عما سواه ، فلم يزغ قلبه التفاتا عن الله على غيره ، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه ، وهذا غاية الكمال والادب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه .

واذا نظرنا في أحوال رسل الله وأنبيائه وجدناها مشحونة بمواطن الادب قائمة على أساسه ، فهذا هو عيسى بن مريم عليه السلام ، يخاطب ربه بقوله :

« تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي » (٢) .

ثم برأ نفسه عن علمه لغيب ربه فقال :

« وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ » (٣) .

ثم وصف ربه بانفراده بعلم الغيب كله فقال :

---

(١) سورة النجم ، الآية ١١ و١٢ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٦ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ١١٦ .

« إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ »[1]

ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره الله به فقال :

« ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ »[2].

ثم أخبر أنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم . وان الله وحده هو المطلع عليهم بعد وفاته ، فقال :

« وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »[3].

ثم بلغ الغاية في الادب مع الله حين قال :

« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ »[4].

أي شأن السيد رحمة عباده والاحسان اليهم ، وهؤلاء عبيدك أنت ، فاذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فأنت لم تعذبهم الا لانهم عبيد سوء ، ولانهم أعصى الناس لمولاهم ، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم فان عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه ، فهم عبادك ، وأنت أعلم بأمرهم :

« وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »[5].

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١١٦ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١٢٠ .
(٣) سورة المائدة . الآية ١١٧ .
(٤) سورة المائدة ، الآية ١١٧ .
(٥) سورة المائدة ، الآية ١١٨ .

ولم يقل الغفور الرحيم ، وهذا من أبلغ الادب مع الله تعالى ، فانه قال ذلك في وقت غضب الله عليهم ، والامر بهم الى النار ، فليس هذا مقام استعطاف ولا شفاعة ، والمعنى : ان غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجز عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم .

وانظر الى أدب ابراهيم حين يقول عن ربه :

« الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالْذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ »[1] .

ولم يقل اذا أمرضني ، حفظا للادب مع الله .

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة :

« فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا »[2] .

ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها .

وهذا موسى عليه السلام يتلطف متأدبا مع ربه فيقول :

« رَبِّ إِنِي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ »[3] .

ولم يقل أطعمني .

وقول آدم عليه السلام :

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٧٨ ـ ٨٠ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٨٠ .
(٣) سورة القصص ، الآية ٢٤ .

« رَبَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ » [1] .

ولم يقل : رب قدرت عليّ وقضيت عليّ .

وهذا أيوب عليه السلام يقول لربه :

« مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » [2] .

ولم يقل : فعافني واشفني .

ومن دقائق الادب في الدين الوضوء والغسل وستر العورة والتزين، ولذلك كان التطهر من الخبث والنجس بعض الادب ، حتى يقف الانسان طاهرا بين يدي ربه ، ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته بالوقوف بين يدي ربه ، فقد أمر الله تعالى بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة ، وهو أخذ الزينة ، فقال :

« خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » [3] .

فعلق الامر بأخذ الزينة ، لا بستر العورة ايذانا بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة .

ومن الادب أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى المصلي أن يرفع بصره الى السماء ، حتى يقف بين يدي ربه مطرقا خافضا بصره الى الارض ولا يرفع بصره الى فوق ، وقد نهى النبي كذلك عن قراءة القرآن في الركوع

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٢٣ .
(٢) سورة الانبياء ، الآية ٨٣ .
(٣) سورة الاعراف ، الآية ٣١ .

والسجود . لأن القرآن كلام الله وحالة الركـوع والسـجود حالـة ذل وانخفاض من العبد ، فمن الادب مع الله أن لا يقـرأ القرآن في هـاتين الحالتين . ومن أدب الصلاة السكون فيها ، وهو الدوام الذي يشير اليه قوله تعالى :

« الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ » [1] .

وقد سئل عقبة بن عامر عن الآية : هم الذين يصلون دائما ؟ فقال : لا ولكنهم الذين اذا صلوا لم يلتفتوا عن يمينهم او شمالهم أو خلفهم .

ولاسلافنا الصالحين كلمات طيبات تشعر بسكانة الادب ، وأنه أهم من العلم . كما أن التربية أهم من التعليم ، فعبدالله بن المبارك يقول : نحن الى قليل من الادب أحوج منا الى كثير من العلم ، ويتحدثون عن الادب مع الله . فيقول الحسن البصري مثلا : أنفع الادب التفقه في الدين ، والزهد في الدنيا . والمعرفة بما لله عليك ، ويقول يحيى بن معاذ : من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله . ويقول سهل : القوم استعانوا بالله على مراد الله ، وصبروا لله على آداب الله ، وحذروا من ترك الادب ، فقال ابو علي الدقاق : ترك الادب يوجد الطرد ، فمن أساء الادب على البساط رُدَّ الى الباب ، ومن أساء الادب على الباب رُدَّ الى سياسة الـدواب . ويقـول ذو النون : اذا خرج المريد عن استعمال الادب فانه يرجع من حيث جاء . ويقول يحيى بن معاذ : اذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقـد هلك مـع الهالكين .

نسأل الله جل جلاله أن يهبنا الادب مع الله تبارك وتعالى ، ومـع رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومع الناس أجمعين .

---

(١) سورة المعارج ، الآية ٢٣ .

الاستئذان

الاستئذان عند أهل التهذيب والتربية والاخلاق فضيلة اخلاقية قرآنية اسلامية ، فهي كما تعودنا أن نقول خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجزء من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم .

واللغة تقول : أذن له في كذا يأذن اذنا أطلق فعله وأباحه ، واستأذن: طلب اذنا . والاذن في الشيء هو الاعلام باجازته والرخصة فيه . والاستئذان هو طلب الاذن ، ومنه قوله تعالى :

« إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ » (١)

وقد ورد ذكر هذه الفضيلة الحميدة في مواطن من القرآن الكريم ، ففي سورة الاحزاب نجد قوله تعالى متعلقا باستئذان النبي :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعَامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ ولَكِنْ إِذا دُعِيتُمْ

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٤ .

فادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كانَ يُؤذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحِي مِنَ الحَقِّ » [1] .

أي لا تتطفلوا على دخول بيوت النبي ، ولكن اذا كان هناك استئذان وأذن لكم رسول الله ودعاكم الى طعام غير مترقبين نضجه واستواءه ، وغير متعرضين للدخول ، فان هذا يكرهه الله ويذمه ، ولكن اذا دعاكم فاستجيبوا لدعوته . فاذا فرغتم مما دعيتم اليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا في الارض . والمراد ان دخولكم منزل النبي بغير اذن منه كان يشق عليه ويتأذى به ، ولكنه كان يكره أن ينهاكم عن ذلك لشدة حيائه ، حتى أنزل الله النهي عن ذلك ، والله لا يستحي من الحق ، ولهذا نهاكم عن هذا الامر وزجركم عنه .

ويقول الله تعالى في سورة النور :

« إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [2] .

هذا أدب أدّب الله به عباده ، فأمرهم بالاستئذان عند الدخول كما

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٥٣ .
(٢) سورة النور ، الآية ٦٢ .

سنعرف في أدب الاستئذان العام ، وأمرهم بالاستئذان عند انصرافهم من مجلس الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، اذا كانوا معه في أمر جامع كصلاة جمعة أو جماعة أو عيد أو اجتماع كمشورة ونحو ذلك ، أمرهم تعالى أن لا ينصرفوا عنه والحالة هذه الا بعد استئذانه ومشاورته ، وان من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر الله رسوله اذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له ان شاء ، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « اذا انتهى أحدكم الى المجلس فليسلم ، فاذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الاولى بأحق من الآخرة » .

« وفي ظلال القرآن » أن المؤمنين الصادقين اذا كانوا مع رسولهم في أمر مهم يقتضي اشتراك الجماعة فيه لرأي أو حرب أو عمل عام لا ينصرفون الا بعد استئذانهم من امامهم ، وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الايمان ، ويلتزمون هذا الادب ، لا يستأذنون الا وهم مضطرون ، فلم من ايمانهم وأدبهم عاصم ان لا يتخلوا عن الامر الجامع الذي يشغل بال الجماعة ، ويستدعي تجمعها له ، والله يدع الامر بيد الرسول فان أذن ، وان شاء لم يأذن ، لأنه قد تكون هناك ضرورة ملحة ، يترك القرآن تقديرها لقائد الجماعة ، ليوازن بين البقاء أو الانصراف ، ومع هذا يشير القرآن الى أن عدم الانصراف هو الاولى ، وان الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي للمعتذرين :

« وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [1] .

وفي سورة النور يقول الله تعالى عن أدب الاستئذان :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ

(١) سورة النور ، الآية ٦٢ .

حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِها ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فيها مَتاعٌ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » (١) .

روي في بيان سبب النزول لهذا النص الكريم أن امرأة من الانصار قالت : يا رسول الله ، اني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها ، والد ولا ولد ، وانه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي ، وأنا على تلك الحال . فنزل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » .

وعن ابن عباس قال : ثلاث آيات جحدها الناس . قال الله : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

ويقولون : ان اكرمهم عند الله أعظمهم بيتا . والاذن كله ـ أي بنوعيه في الآيتين ـ قد جحده الناس . قال له الراوي : أستأذن على اخواتي أيتام في حجري ، معي في بيت واحد ؟ قال ابن عباس : نعم ، فكرر السائل السؤال لعله يجد رخصة ، فقال ابن عباس : أتحب أن تراها عريانة قال السائل : لا . قال : فاستأذن . فراجعه أيضا فقال له : أتحب أن تطيع

(١) سورة النور ، الآية ٢٧ ـ ٢٩ .

الله . قال : نعم . قال ابن عباس : فاستأذن .

وعن ابن مسعود قال : عليكم الاذن على أمهاتكم ، واذا كان هناك من يرى عدم الاستئذان على الزوجة ، فهذا محمول على عدم الوجوب والاولى أن يعلم الزوج زوجته بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

وعن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد سعد بن عبادة ردا خفيا ، فقال له ابنه : ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال ذره يكثر علينا من السلام. فقال النبي مرة اخرى : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد سعد ردا خفيا . ثم قال النبي : السلام عليكم ورحمة الله . ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبعه سعد فقال : يا رسول الله ، اني كنت اسمع تسليمك ، وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام . ونفهم من هذا الحديث ان التسليم عند الاستئذان يكون ثلاثا ، فاذا لم يكن جواب انصرف المستأذن . قالوا : وينبغي للمستأذن أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، اذا لم يكن له ستر يحجبه ، ولكن ليجعل الباب عن يمينه او يساره ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الايمن أو الايسر ، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . وقد جاء في الحديث الصحيح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو أن أمرا اطلع عليك بغير اذن فخذفته (قذفته) بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح . وكذلك كرهوا ان يقول المستأذن كلمة : أنا، عند سؤاله عن شخصه ، لان كلمة أنا لا نعرف صاحبها الا بافصاحه عن اسمه أو كنيته التي هو مشهور بها ، والا فكل واحد يعبر عن نفسه بكلمة (أنا) ، فلا يتحقق الاستئناس المأمور به .

وقد دخل بعض الناس على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ولم

يسلم ولم يستأذن، فقال له النبي ارجع فقل السلام عليكم أأدخل ؟ وينبغي للمستأذن ان يحدث من الصوت او الحركة ما يشعر به ، كالتنحنح ونحوه، واذا لم يجد المستأذن أحدا في البيت رجع من حيث جاء فذلك ازكى لـه وأطهر .

والاستئذان عند دخول البيوت والاستئناس بأهلها والتسليم عليهم أدب من آداب السلام ، وقد جعل الله البيوت ــ كما في ظلال القرآن ــ سكنا يفيء اليها الناس فتسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم ، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم ، ويلقون اعباء الحذر والحرص المرهقة للاعصـاب . والبيوت لا تكون كذلك الا حين تكون حرما آمنا لا يستبيحه أحد الا بعلم أهله واذنهم ، وفي الوقت الذي يريدون ، وعلى الحالة التي يحبـون أن يلقوا عليها الناس . ذلك الى أن استباحة حرمة البيت من الداخلـين دون استئذان ، تجعل أعينهم تقع على عورات ، وتلتقي بسفاتن الشهوات ، وتهيء الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العـابرة والنظـرات الطـائرة ... والاستئذان على البيوت يحقق لها حرمتها التي تجعل منها مثابة وسكنا ، ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة ، والضيق بالمباغتة ، والتأذي بانكشاف العورات وهي كثيرة ، منها عورات البدن ، وعورات الطعام ، وعـورات اللباس ، وعورات الاثاث ، التي قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجمل واعداد ، وهي عورات المشاعـر والحـالات النفسية ، فبعض الناس لا يحب ان يراه الناس وهو في حالة ضعف يبكي لانفعـال مؤثر ، أو يغضب لشأن مثير ، أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء .

وكل هذه الدقائق يرعاها المنهج القرآني بهذا الادب الرفيع . أدب الاستئذان ، ويرعى معها تقليل فرص النظرات السانحة والالتقاءات العابرة، التي طالما أيقظت في النفوس كامن الشهوات والرغبات ، وطالما نشأت عنها علاقات ولقاءات يدبرها الشيطان .

ويحدثنا القرآن عن أدب الاستئذان عند الجواري والخدم والاطفال فيقول في سورة النور :

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشاءِ ثلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَإِذا بَلَغَ الأَطْفالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَالقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »[1] .

في هذه الآيات الكريمة بيان لاستئذان الاقارب بعضهم على بعض ، بعد أن أبان استئذان الاجانب بعضهم على بعض فأمر الله عباده المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت ايمانهم واطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال :

---

(١) سورة النور ، الآية ٥٨ ـ ٦٠ .

١ ــ من قبل صلاة الفجر ، لأن الناس حينئذ يكونون في العادة نياما في مضاجعهم .

٢ ــ وقت القيلولة ، لأن الانسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله .

٣ ــ من بعد صلاة العشاء ، لأنه في العادة وقت النوم .

فيؤمر الخدم والاطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الاحوال، فقد يكون الرجل مع أهله ، أو نحو ذلك من الاعمال ، ولذلك قال القرآن: انها ثلاث عورات تحتاج الى الحذر والاحتيــاط ، وليس هنــاك بأس في التمكين من دخولهم في غير هذه الاوقات . ومــن هنــا قال عبدالله بن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ »[1] .

الى آخر الآية ، والآية التي في سورة النساء :

« وإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُو القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ » .

والآية التي في سورة الحجرات :

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »[2] .

وفي بعض الروايات قال : « غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات فلم

---

(١) سورة النور ، الآية ٥٨ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

يعملوا بهن » وذكر الآيات السابقة . ويروى عنه أنه كان يقول عن آيــة الاستئذان : « لم يؤمن بها أكثر الناس : آية الاذن ، واني لآمر جاريتي هذه تستأذن علي » .

ويروى ان رجلا من الانصار ــ وامرأته اسماء بنت مرشدة ــ صنع للنبي صلى الله عليه وسلم طعاما ، فجعل الناس يدخلون بغير اذن فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ، انه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامُهما بغير اذن فأنزل الله في ذلك :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ »[1] .

الآية .

ثم ذكر الله تعالى أن الاطفال اذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعني بالنسبة الى أجانبهم في الاحوال الثلاثة وغيرها .

* * *

واذا كان القرآن الكريم قد نوّه بفضيلة الاستئذان في مواطنهــا المجيدة الحميدة ، فانه قد حذرنا من نوع مؤوف معيب من الاستئذان يعد رذيلة وليس بفضيلة ، ومن ذلك ما ذكره القرآن في سورة التوبة :

« فإنْ رَجَعَكَ اللهُ إلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ »[2] .

---

(١) سورة النور ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٨٤ .

وبعد قليل يعود التنزيل الى الحديث عن هؤلاء الملعونين المطبوع على قلوبهم فيقول :

« وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ القاعِدِينَ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِفِ وَطُبعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ » (١) .

وبعد آيات في السورة يتحدث التنزيل عن الذين يستأذنون وهم يريدون استغلال الاستئذان فيما يقبح ويسوء ، فتقول السورة :

« إِنَّما السَّبِيلُ عَلى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخوالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ » (٢) .

وهناك استئذان مشبوه ظنين يؤدي الى سوء العواقب ، فذلك حيث يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الاحزاب :

« وَإِذْ قَالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فريقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً » (٣) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٨٦ و٨٧ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٩٣ .
(٣) سورة الاحزاب ، الآية ١٣ .

فهم يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو ، متروكة بلا حماية، وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ، ويجردهم من العذر والحجة ، ويضبطهم متلبسين بالكذب والجبن والفرار:

« وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مقاومة الهوى

عرف العلماء الهوى بأنه ميل النفس الى الشهوة ، ويقال ذلك للنفس المائلة الى الشهوة ، سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا الى كل داهية، وفي الآخرة الى الهاوية ، وهوى اذا سقط من علو الى سفل ، وهوى ، تردى وهلك ، وهوى النجم ، غاب وغرب ، واستهوته الشياطين أي حملته على اتباع الهوى ، والهاوية النار .

ومقاومة الهوى ، مغالبته ومحاربته ، والخلوص من وسواس النفس واغواء الشيطان ، ومقاومة الهوى خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم ، ومقاومة الهوى تشمل مقاومة هوى النفس . ومقاومة هوى الآخرين ، وقد عظم الله تعالى ذم اتباع الهوى في مواطن من كتابه العزيز، ونوه بشأن من يفلح في مقاومة هواه ، فقال في سورة « النازعات » :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ، فإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى »[1] .

---

(١) سورة النازعات ، الآية ٤٠ و٤١ .

يعني من خاف المقام بين يدي الله تعالى ، ونهى نفسه عن هواها ، وردها الى طاعة مولاها ، فان الجنة هي المأوى ، أي منقلبه ومصيره الى الجنة الفيحاء .

ويقول القرآن الكريم في سورة الكهف :

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً »[1] .

أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويحمدونه ، ويسبحونه ويكبرونه ، ويسألونه بكرة وعشيا ، من عباد الله ، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء ، أو أقوياء أو ضعفاء ، ولا تجاوزهم الى غيرهم ، ولا تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، ولا تطع من شغلته الدنيا عن عبادة ربه وطاعته ، واعماله هي تفريط وضياع .

ويقول القرآن في سورة النساء :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »[2] .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٣٥ .

يقول الله تعالى في الآية : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ، كما قال الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ومن هذا القبيل قول عبدالله بن رواحة حينما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليقدر على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا رشوته ليرفق بهم ، فقال لهم : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق الي ، ولأنتم أبغض الي من أعدائكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي اياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم . فقالوا : بهذا قامت السماوات والارض .

ويقول القرآن في سورة الاعراف :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتِنا فانْسَلَخَ مِنْها فأَتْبَعَهُ الشَّيطانُ فكانَ مِنَ الغاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنا لرَفَعْنَاهُ بِها وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » [1] .

روي ان هذا النص أريد به أمية بن أبي الصلت ، فانه كان قد وصل اليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع به ، فقد أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغته آياته ومعجزاته ، وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه ، وسار الى موالاة المشركين ،

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٧٤ و١٧٥ .

وامتدحهم ، وقد جاء عنه في بعض الاحاديث كما يذكر ابن كثير : « انه ممن آمن لسانه ، ولم يؤمن قلبه » فان له أشعارا فيها حكمة وفصاحة ، ولكن الله لم يشرح صدره للاسلام ، ولذلك شهر القرآن بمن استحوذ عليه الشيطان ، فجعله من الهالكين الخاسرين . ولو شاء لرفعه عن التلطخ بقاذورات الدنيا ، ولكنه أخلد الى الارض ، ومال الى زينة الحياة الدنيا ، فمثله كمثل الكلب ان حملت عليه لهث ، وان تركته بلا حمل عليه ظل في لهاثه ، لأنه لا ينتفع بالموعظة والدعوة الى الايمان ، فكذلك قلب الكافر والضال ، فهو ضعيف فارغ من الهدى ، وقلبه كثير الوجيب ، ولسانه مندلع على صدره ، وكذلك ساء مثل الكافرين ، فهم كالكلاب لا همة لها الا في تحصيل أكلة أو شهوة .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة «الجاثية» منفرا من اتباع الهوى حتى يتخذه إلهه من دون الله :

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [1] .

يشير النص الكريم الى الذي لم يسلك الطريق الى ربه، فيأتمر بهواه، ومهما رأى هذا الهوى حسنا فعله ، ولا يهوى شيئا الا عبده ، وأضله الله على علم ، أي أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ، أو أضله الله بعد بلوغ العلم اليه ، وقيام الحجة عليه ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعي شيئا يهتدي به ، ولا يرى حجة يستضيء بها ، وهذه الضلالة قد غشيته عن طريق اتباعه للهوى ، وخضوعه

---

(١) سورة الجاثية ، الآية ٢٣ .

له . من دون الله جل جلاله .

ويقول تعالى في سورة « طه » :

« إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى ، فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى » [1] .

أي ان القيامة آتية قائمة لا محالة . أكاد أخفيها ، لا أطلع عليها أحدا غيري ، لأجزي كل عامل بعمله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

وهو يأمره بألا يتبع من كذب بالقيامة ، وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه ، واتبع هواه ، حتى لا يصاب بالهلاك والعطب .

وقال تعالى في سورة « القصص » :

« فإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ » [2] .

أي اذا لم يستجيبوا لك ، ولم يتبعوا الحق ، فاعلم أنهم خسرة في تضليل لا حجة لهم ولا دليل ، وليس هناك أضل ممن اتبـع هواه بغـير هدى من الله .

---

(١) سورة طه ، الآية ١٥ و١٦ .
(٢) سورة القصص ، الآية ٥٠ .

وقال تعالى في سورة « الرعد » :

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ »[1] .

كما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا ، شرفناك به ، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب ، ولئن اتبعت اهواءهم وآراءهم بعدما جاءك من العلم من عند الله تعالى مالك ولاية او وقاية . وهذا تهديد من الله ووعيد .

وقال تعالى في سورة « الروم » :

« بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ »[2] .

يذكر الله تعالى أن المشركين عبدوا غيره سفها وجهلا ، وهذا ضلال ليس بعده ضلال ، ولا أحد يهديهم اذا كتب الله عليهم الضلال ، وليس لهم من قدرة الله تعالى منقذ أو مجير .

ويقول تعالى في سورة « الفرقان » :

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا »[3] .

فالله تعالى ينفي عن رسوله صلى الله عليه وسلم القدرة على أن يكون

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٣٧ .
(٢) سورة الروم ، الآية ٢٩ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٤٣ .

وليا وكيلا ونافعا لهذا الضال ، بعد أن جعل الهه هواه .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : « كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الابيض زمانا ، فاذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني ، وترك الاول» ولن يستطع أحد غير الله أن يكون وكيلا له مدافعا عنه ، وفي هذا من التنفير عن عبادة الهوى ، والخضوع له ما فيه .

ويقول الله تعالى في سورة « محمد » :

« أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » (١) .

ليس من كان على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه ، وما جبله الله عليه من الفطرة السليمة ، كمن هو أعمى البصيرة ، وبدا عمله السيء أمامه حسنا ، وفوق هذا هو ممن يتبعون أهواءهم ، فتضلهم هذه الاهواء ، وتبعدهم عن حمى الله تعالى ، فالفريقان ليسا سواء :

« لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وأَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائِزُونَ » (٢) .

وقد عاد الله تعالى في سورة محمد ، فجعل فريقا في الحضيض ، وهم الذين يتبعون أهواءهم ، وأما الذين اهتدوا فقد بارك الله لهم . فقال تعالى في السورة نفسها :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ

---

(١) سورة محمد ، الآية ١٤ .
(٢) سورة الحشر ، الآية ٢٠ .

قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ماذا قَالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زادَهُمْ هُدًى وَآتاهُمْ تَقْوَاهُمْ »[1] .

وقال تعالى في سورة «النجم» عن الكافرين :

« إنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى »[2] .

فهؤلاء المشركون ليسوا على صراط أو هدى ، بل يتبعون آباءهم الاقدمين الضالين ، والظن لا يغني من الحق شيئا ، وهوى نفوسهم يقودهم شر المعاطب .

ويقول تعالى في السورة نفسها :

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى . إنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى »[3] .

فالنبي عليه الصلاة والسلام تابع للحق ، ليس بضال ، وقوله الذي ينطق به لا يصدر عن الهوى ، وانما هو مبلغ عن الله عز وجل .

وقال تعالى في سورة « الشورى » :

« فَلِذَلِكَ فادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِــعْ أَهْوَاءَهُمْ

---

(١) سورة محمد ، الآية ١٦ و١٧ .
(٢) سورة النجم ، الآية ٢٣ .
(٣) سورة النجم ، الآية ٣ و٤ .

وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ » [1] .

فالله يأمر نبيه أن يدعو الناس الى صراط ربهم ، وأن يستقيم ـ كما أمره ـ هو ومن اتبعه ، وحذره أن يتبع هوى المشركين فيما افتروه واختلقوه .

وكما حذر الله نبيه أن يتبع الهوى ، وكرر هذا التحذير والنهي ، نجده يعود الى توصيته بأن يحذر اتباع الهوى ، وان يستمسك بحبل الله القوي المتين ، وأن يستمسك بشريعة الله فيقول في سورة « الجاثية » :

« ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » [2] .

أي اتبع ما أوحي اليك من ربك ، لا اله الا هو ، وأعرض عن المشركين ، وذكر الله نبيه بأن هؤلاء المشركين جهلة لا يعلمون ، ولا يعرفون حقائق الامور .

ويقول تعالى في سورة الانعام :

« قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذا فإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ

---

(١) سورة الشورى ، الآية ١٥ .
(٢) سورة الجاثية ، الآية ١٨ .

كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَالَّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ »[1] .

أي أحضروا شهداءكم ليشهدوا لكم أن هذا الذي حرمتموه . وكذبتم في تحريمه افتراء على الله ، فان شهدوا فــلا تشهد معهم ، لأنهم حينئــذ يشهدون كذبا وزورا ، واحذر أن تتبع أهواء من كذبوا بآياتنا وأشركوا بالله وجعلوا له عديلا .

ويقول تعالى في سورة « المائدة » :

« قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ »[2] .

أي قل لهؤلاء العابدين غير الله : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، وقل لهم : لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تجاوزوا الحد في اتباع هذا الحق ، وهؤلاء الذين غلوا في دينهم قــد ضلــوا في أنفسهم ، وأضلوا كثيرا من الناس عن صراط الحق المستقيم .

وقال في سورة الانعام :

« قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لا أَتَّبِــعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنا مِنَ المُهْتَدِينَ»[3].

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٥٠ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٧ .
(٣) سورة الانعام ، الآية ٥٦ .

يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : قل لهؤلاء المشركين بربهم من قومك ، العادلين به الاوثان والانداد ، الذين يدعونك الى موافقتهم على دينهم وأوثانهم ، ان الله نهاني أن أعبد الذين تدعون من دونه ، فلن أتبعكم ، وان فعلت ذلك فقد تركت صراط الحق ، وتبعت طريق الضلال.

ويقول تعالى في سورة « البقرة » :

« وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ »[1] .

أي ليس هؤلاء براضين عنك ، حتى تتبع ملتهم ودينهم وطريقتهم ، فلا تستمع اليهم ، ولا تستجب لأهوائهم ، فان هدى الله هو الهدى الحق، والدين الصحيح الكامل . في حديث رسول الله: « لا تزال طائفة من أمتي يقتتلون على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

والله جل شأنه يعلم أن نبيه لا يتبع أهواء المشركين بحال من الاحوال، وقد عصم من الزيغ والضلال ، انما جاء هذا الاسلوب ــ كما قال الامام محمد عبده ــ ليرشد من يأتي بعد النبي ممن يتبع سنته ويأخذ بهديه ، فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم ، الى الصدع بالحق ، والانتصار له ، وعدم المبالاة بمن يخالفه ، مهما كان قويا وشديدا، وانه لتهديد ترتعد منه فرائص الذين يخشون ربهم ، ولا سيما اذا أنسوا من أنفسهم ضعفا في الحق ، فمن عرف الحق ، لا يخاف في تأييده لومة لائم .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٠ .

ويطالبنا تفسير « ظلال القرآن » أن نقف لحظة أمام هـذا الجد الصارم ، في هذا الخطاب الالهي ، من الله سبحانه ، الى نبيه الكريم ، الذي حدثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود .

إن الامر هنا يتعلق بالاستقامة على هدى الله وتوجيهه ، ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد الا من طاعة الله ونهجه .

ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والحزم ، وبهـذه المواجهـة والتحذير : « انك اذا لمن الظالمين » .

ان الطريق واضح والصراط مستقيم ، فاما العلم الذي جاء من عند الله . واما الهوى في كل ما عداه . وليس للمسلم أن يتلقى الا من الله ، وليس له أن يدع العلم المستيقن الى الهوى المتقلب . وما ليس من عنـد الله فهو الهوى بلا تردد .

وجاء في سورة البقرة :

« وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ » (١) .

أي لو أقام الرسول عليهم كل دليل بصحة ما جاءهم به ، لما اتبعوه وتركوا رذيلة اتباع الهوى ، وأنت بفضل الله وتوفيقه لن ترتكب هـذه الرذيلة ، ولن تقبل هواهم ، بل تستمسك بأمر الله في كل الاحوال ، ونحن نحذرك من مخالفة الحق والركون الى اهوائهم ، والخطاب يشمل أمة النبي

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٥ .

عليه الصلاة والسلام وان كان موجها اليه في النص .

ويعلق الامام محمد عبده على هذا الوعيد بأنه لأعلى الناس مقاما عند الله تعالى ، هو أشد وعيد لغيره ممن يتبع الهوى ، ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم ، على ما هم عليه من الباطل . ويستحيل على النبي أن يتبع أهواءهم ، أو يجاريهم في شيء نهاه الله عنه ، فان كان أفرده بالخطاب ، فقد أراد أمته ، ليتنبه الغافل ، ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس من الظلم العظيم الذي يقطع طريق الحق ، ويردي الناس في مهاوي الباطل .

وقد قالت الآية : « ولئن اتبعت أهواءهم » فجاءت كلمة « الاهواء » بلفظ الجمع تنبيها على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر ، ثم ان هوى كل واحد لا يتناهى ، فاتباع أهوائهم اذا نهاية الضلال والحيرة .

وكما اتخذ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ـ كما رأينا في الآيات المتقدمة ـ موضعا للنهي عن الهوى ، نجد أن الرسول قد حذر من اتباع الهوى ، فقال في حديثه الصحيح : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

* وقد ذكر ابن ابي الحديد أن سبب هلاك النفس ليس الا هوى الانفس . وقد قال هذا بمناسبة شرح خطبة للامام علي في « نهج البلاغة » جاء في أولها ; « ان أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الامل فينسي الآخرة » .

ولقد عني علماؤنا بالحديث عن مقاومة الهوى ، وللامام ابن الجوزي كتاب ضخم اسمه « ذم الهوى » ، كما تحدث الغزالي عن خطورة الاتباع للهوى .

ويقول ابن سهل الاصبهاني : « العقل مع الروح يدعوان الى الآخرة ،

ومخالفة الهوى والشهوات ، فلذلك يسمى روحا » .

ويقول أبو بكر الوراق : « أصل غلبة الهوى مفارقة الشهوات ، فاذا غلب الهوى ، أظلم القلب ، واذا أظلم القلب ضاق الصدر ، واذا ضاق الصدر ساء الخلق ، واذا ساء الخُلُق أبغضه الخَلق ، واذا أبغضه الخلق أبغضهم ، واذا أبغضهم جفاهم ، واذا جفاهم صار شيطانا » .

وعلى الله قصد السبيل .

الرعـايـة

الرعاية من مادة « الرعي » واللغة تقول : ان المادة تدل عـلى الحفظ والصيانة والملاحظة ، والراعي هو كل من ولي أمر قوم بالحفظ والسياسة. وراعيته اذا لاحظته محسنا اليه ، ومن ذلك مراعاة الحقوق . ورعى الانسان النجوم مراعاة اذا راقبها وتأمل فيها وانتظر مغيبها . وراعني سمعك ، أي استمع الي ، وراعيت أمر فلان مراعاة اذا حفظته .

والرعاية التي نريدها هنا خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هـدى الرسول عليـه الصـلاة والتسليم . وقد عد الامام ابن القيم فضيلة « الرعاية » منزلة من منـازل

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيّاكَ نَسْتَعِينُ » (١) .

وهي الآية الكريمة التي بنى الامام ابن القيم على الحديث عنها كتابه القيم « مدارج السالكين » . وقد قال في تعريف الرعاية : انها مراعـاة العلم ، وحفظه بالعمل ، ومراعاة العمل بالاحسان والاخلاص ، وحفظه من المفسدات . فالرعاية اذن صيانة وحفظ لما يكون بين يدي الانسان من أمانة

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

أو قول أو سلوك .

وقد وردت مادة الرعاية في القرآن الكريم ، فقال في التنزيل في سورة الحديد :

« ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » (١) .

والرهبانية هي الفعلة المنسوبة الى الرهبان ـ بفتح فسكون ـ أي الخائف ، صيغة فعلان من رهب مثل : خشيان ، وكانوا يفرون الى الجبال والصحارى ، ويقطعون أنفسهم عن الزواج والنسل . ويخطىء من يظن أن كلمة « رهبانية » معطوفة في الاعراب على كلمتي « رأفة ورحمة » ، وعلى ذلك تكون الكلمة منصوبة بوقوع « الجعل » عليها ، وهذا الفهم خطأ ، والصواب أن كلمة « رهبانية » منصوبة على الاشتغال بفعل « ابتدعوها »، والوقف يكون على كلمة « ورحمة » ثم تتابع القراءة بعدها ، أي ورهبانية ابتدعوها ، أي لم يشرعها الله لهم ، وانما ابتدعوها من عند انفسهم ، ولم يكتبها الله عليهم .

وفي هذه الآية السابقة استطاع العلماء أن يفهموا منها أن الله يذم من لم يلتزم رعاية شيء ألزم نفسه برعايته من أنواع الطاعة حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة باتمامها . ويعلق على ذلك بعض العلماء

---

(١) سورة الحديد . الآية ٢٧ .

بقوله : « ابتدع النصارى الرهبانية زاعمين انها من سنن عيسى بن مريم وهداه عليه السلام ، فكذبهم الله في ذلك ، وبين انهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم . وعيسى عليه السلام بريء منها ، فانها على خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والله لا يشرع ما يضاد الفطرة ، ولا يحبه ، ولذلك فانهم لم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا ـ أن يرعوها حق رعايتها ، لأن سنن الله لا يقدر أحد على تبديلها .

ويتحدث صاحب : « في ظلال القرآن » عن الآية السابقة فيقول ضمن ما يقول :

« والراجح في تفسير هذه الآية أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختيارا من بعض اتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وابتعادا عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء ، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ، وقناعة وعفة ، وذكر وعبادة ، مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التي قصدوا اليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها .

ولكنها انتهت الى أن تصبح في الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهرا عاريا من الحقيقة ، فلا يصبر على تكاليفها الا عدد منهم قليل . « فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » . والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والاشكال ، ولا بالطقوس والمسوح ، انما يأخذهم بالعمل والنية ، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك ، وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور » .

وأشار القرآن الى فضيلة الرعاية ، فقال في سورة المؤمنون :

« وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »[1] .

وقد جاءت الآية في مجال التعداد لصفات المؤمنين . يقول ابن كثير عنها : « اذا اؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها الى أهلها ، واذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان .

وقد تكررت الآية السابقة في سورة « المعارج »[1] وعندها رجع ابن كثير الى تأكيد المعنى بقوله : أي اذا اؤتمنوا لم يخونوا ، واذا عاهدوا لم يغدروا ، وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين . كما ورد في الحديث الصحيح : آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان . وفي رواية : اذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر .

وحينما وردت الآية السابقة أولا في سورة المؤمنون علق عليها صاحب تفسير في ظلال القرآن بقوله : « والامانات كثيرة في عنق الفرد وعنق الجماعة ، وفي أولها أمانة الفطرة ، وقد فطرها الله مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذي هي منه واليه ، شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته، بحكم احساسها الداخلي بوحدة الناموس الذي يحكمها ويحكم الوجود، ووحدة الارادة المختارة لهذا الناموس المدبرة لهذا الوجود .

والمؤمنون يرعون تلك الامانة الكبرى ، فلا يدعون فطرتهم تنحرف عن استقامتها ، فتظل قائمة بأمانتها شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته ، ثم تأتي سائر الامانات تبعا لتلك الامانة الكبرى .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٨ .
(٢) سورة المعارج ، الآية ٣٢ .

والعهد الاول هو عهد الفطرة كذلك . هو العهد الذي قطعه اللـه على فطرة البشر بالايمان بوجوده وتوحيده ، وعلى هذا العهد الاول تقوم جميع العهود والمواثيق ، فكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيدا عليه فيه، ويرجع في الوفاء به الى تقوى الله وخشيته .

والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة ، مسؤولة عن عهدها مع الله تعالى ، وما يترتب على هذا العهد من تبعات ، والنص يجمل التعبير ، ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد ، ويصف المؤمنين بأنهم لاماناتهم وعهدهم واعون ، فهي صفة دائمة لهم في كل حين ، وما تستقيم حياة الجماعة الا أن تؤدى فيها الامانات ، وترعى فيها العهود ، ويطمئن كل ما فيها الى هـذه القاعدة الاساسية للحياة المشتركة ، الضروريـة لتوفـير الثقـة والامـن والاطمئنان » .

وحينما وردت الآية نفسها في سورة « المعـارج » أورد صـاحب « الظلال » هذه الكلمات : « هذه من القوائم الاخلاقية التي يقيم الاسلام عليها نظام المجتمع ، ورعاية الامانات والعهود في الاسلام تبدأ من رعاية الامانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والارض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، وهي أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارا لا اضطرارا . ومن رعاية العهد الاول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الاصلاب ان الله ربهم الواحد ، وهم بخلقهم على هذا العهد شهود . ومن رعاية تلك الامانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الامانات والعهود في معاملات الارض . وقد شدد الاسلام في الامانة والعهـد ، وكرر وأكد ، ليقيم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة ، وجعل رعاية الامانة والعهد سمة النفس المؤمنة ، كما جعل خيانة الامانـة واخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة . وردد هذا في مواضع شتى من القرآن والسنة لا تدع مجالا للشك في أهمية هذا الامر البالغـة في

عرف الاسلام » .

وينبغي للقارىء هنا أن يرجع الى بحثنا الذي كتبناه عن « الامانة » في الجزء الثاني من كتابي « أخلاق القرآن »[1] .

ويتحدث الهروي عن فضيلة الرعاية ، فيرى أن الرعاية ثلاث درجات: رعاية الاعمال ، ورعاية الاحوال ، ورعاية الاوقات . ويعلق على ذلك ابن القيم فيذكر أن معنى رعاية الاعمال هي توفيرها بتحقيرها ، والتوفير هنا معناه السلامة من طرفي التفريط بالنقص ، والافراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها ، وشروطها وأوقاتها . وأما تحقير الاعمال فيراد به استصغارها في عينه . وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبادته أمر آخر ، وأنه لم يوفه حقه ، وأنه لا يرضى لربه بعمله . وقد قيل: علامة رضا الله عنك اعراضك عن نفسك ، وعلامة قبولك عملك احتقاره واستقلاله (عده حقيرا قليلا) وصغره في قلبك ، حتى ان العارف يستغفر الله عقب طاعته ، وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام اذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا ، وقد أمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ، ومدحهم على الاستغفار عقب قيام الليل ، وشرع النبي صلى الله عليه وسلم عقيب الطهور التوبة والاستغفار . والسر في ذلك أن من عرف واجب ربه وهو عظيم جليل ، ثم نظر الى عمله في عبادته استصغره مهما كان عظيما ، فاندفع الى استغفار ربه ، لأنه يستصغر عبادته .

ويضيف ابن القيم ان رعاية الاحوال هي أن يعد الانسان الاجتهاد مراءاة ، فيتهم نفسه في اجتهاده ، فلا يطغى به ، ولا يسكن اليه ، وانما هناك فضل الله وعطاؤه ، ووديعته عنده ، ومجرد منته عليه .

وأما رعاية الاوقات فهي أن يقف العبد مع كل خطوة ، أي يقف مع

---

(١) كتابي « أخلاق القرآن » الجزء الثاني ، من صفحة ١٥ الى صفحة ٣٢ . الطبعة الاولى .

كل حركة في الظاهر والباطن ، بمقدار تصحيحها ، نية وقصدا ، واخلاصا ومتابعة .

وحينما تحدثوا عن مراتب العلم قالوا ان العلم اما أن يكون رواية ، والرواية مجرد النقل وحمل المروي ، وهذه الرواية هي شغل النقلة ، واما دراية وهي فهم المعقول وتعقل معناه ، والدراية هي شغل العلماء ، واما رعاية ، وهي العمل بموجب ما علمه الانسان ، والرعاية هي شغل العارفين، وينبغي لنا أو يجب علينا أن نتذكر هنا قول الحق تبارك وتعالى في سورة الصف :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ »[1] .

وقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضيلة الرعاية ، فأخبرنا في حديثه المتفق عليه أن كل واحد منا راع ، أي حافظ ومؤتمن، وكل واحد مسؤول عن رعيته ، وهي كل من شمله بالرعاية والحفظ ، لأن الرعاية مراعاة ، والمراعاة ملاحظة ، والملاحظة حفظ ونظر . يقول عليه الصلاة والسلام : « ألا كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته ، فالامام الذي على الناس راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده ، وهي مسؤولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ، ألا

(١) سورة الصف ، الآية ٢ ــ ٤ .

فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

والراعي كما ذكرنا هو الحافظ المؤتمن على ما يليه . وكل شخص راع ومسؤول ، فالحاكم راع على محكوميه ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها واولاده وماله ، وولد الرجل راع على مال أبيه ، والخادم راع على مال سيده ، والكل مسؤولون ان قصروا ، ومثابون أن أخلصوا في عملهم . ويبقى الشخص الفرد الذي لا زوج له ولا ولد ، ولا خادم له ، فهو راع على جوارحه ، بحفظها من الحرام ، وقيامها بالواجب عليها ، شكرا لله تبارك وتعالى ، فصدقت القاعدة : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

وقد روى الشيخان البخاري ومسلم قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « ما من وال يلي رعية من المسلمين ، فيموت وهو غاش لها الا حرم الله عليه الجنة » .

ولقد روي في شأن هذا الحديث أن عبيدالله بن زياد كان أميرا على البصرة من جهة معاوية بن أبي سفيان ، فسمع بمرض معقل بن يسار الصحابي الجليل ، فذهب اليه ليعوده ، وفي أثناء العيادة قال ابن يسار رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : كل راع يموت وهو غاش لرعيته فالجنة عليه حرام .

ويعلمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ولاية الانسان على الناس لون من أدق ألوان فضيلة الرعاية التي يدعونا الى فقهها الاسلام ، لانها تستلزم الوقاية من الزلل ، والتجنب للخلل ، ورعاية الله في حقوق عباده، ومحاربة النفس فيما يتعلق بأمورهم ، وهذا مثلا أبو ذر الغفاري يطمع في الامارة والولاية على الناس ، فيتجه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، يطمع منه أن يوليه ولاية فيقول له : يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ فضربه رسول الله على منكبه ، وقال له : يا أبا ذر ، انك ضعيف ، وانها امانة

وانها يوم القيامة خزي وندامة ، الا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها .

واذا تدبر الانسان الامور من حوله أدرك ان الولاية على الناس رعاية أي رعاية لامورهم ما دق منها أو جل ، ورقابة موصولة رعاية لتقوى الله فيهم ، والعدل بينهم . والرسول يقول : « انكم ستحرصون على الامارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرضعة وبئس الفاطمة » هي نعم المرضعة في تقدير الناس عند اقبالها ، وفي أيامها ، ولكنها بئس الفاطمة عند اعراضها . وانقضاء لذاتها ، وبقاء حسراتها وتبعاتها .

وقد كان اعلام المسلمين في عهود السلف يزينون انفسهم بفضيلة الرعاية لما وضع الله بين أيديهم من أمانات وتبعات ، وكانوا يخشون أن تمر عليهم الايام ، فتبتليهم بهذه التبعات ، ويتوجسون خوفا من عجزهم عن وفائهم بحقوق هذه الرعاية .

وهذا عمر بن الخطاب يقول في أخريات أيامه : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، وقلت حيلتي ، فاقبضني اليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك عليه الصلاة والسلام » .

وهذا حفيده عمر بن عبد العزيز كان من قوة فضيلة الرعاية عنده أن يقول : « اني نظرت الى نفسي فوجدتني قد وليت أمر هذه الامة كلها ، ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والاسير المفقود ، وأشباههم في أقاصي البلاد واطراف الارض ، فعلمت أن الله تعالى سائلي عنهم ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم ، فخفت ألا يثبت لي عند الله تعالى عذر ، ولا يقوم لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ، فخفت على نفسي خوفا دمعت له عيني ووجل له قلبي ، وأنا كلما ازددت لذلك ذكرا ازددت منه وجلا » .

وكلمات عمر بن عبد العزيز في تصوير فضيلة الرعاية والاحساس بالتبعة نحو الواجب قد تكفل ببيانها كتابي « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز » وخاصة الجزء الاول منه ، مما يعطينا فكرة واسعة عن أحد الذين تحلوا بهذا الخلق القرآني الاسلامي الكريم .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا نعمة الرعاية لحقوقه ، والاخلاص لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه .

الغربـة

« الغربة » خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجزء من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم . وقد استدل الامام الهروي في كتابه « منازل السائرين » على فضيلة « الغربة » بقوله تعالى في سورة هود :

« فَلَوْلا كانَ مِنَ القُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ في الأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانوا مُجْرِمِينَ » (١) .

وقد علق الامام ابن قيم الجوزية في كتابه « مدارج السالكين » بهذه العبارة : « استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن . فان الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية ، وهم الذين أشار اليهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : الذين يصلحون اذا فسد الناس » . وقد أوضح

---

(١) سورة هود ، الآية ١١٦ .

ابن القيم معنى الغربة بأن كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه فهو غريب بينهم ، لعدم مشاركته أو قلته ، والغربة ثلاثة أنواع :

١ ــ غربة عن الوطن للجهاد في سبيل الله بالابدان ، وصاحب هذه الغربة محمود ، وقد ورد انه يقاس له في قبره من مدفنه الى وطنه ، وقد توفي بالمدينة رجل ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ليته مات في غير مولده . فقال رجل : ولم يا رسول الله ؟ فقال : ان الرجل اذا مات قيس له من مولده الى منقطع أثره في الجنة .

وروي أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وقف على قبر رجل بالمدينة فقال : « يا له ، لو مات غريبا . فقيل : وما للغريب يموت بغير أرضه ؟ فقال : ما من غريب يموت بغير أرضه الا قيس له من تربته الى مولده في الجنة » .

٢ ــ غربة الحال ، ويراد بالحال هنا الوصف الذي قام به من الدين والتمسك بالسنة وهذه الغربة محمودة ، لأن صاحب هذه الغربة أحد ثلاثة أنواع : صاحب صلاح ودين بين قوم فاسدين ، وصاحب علم ومعرفة بين قول جهال ، وصاحب صدق واخلاص بين أهل كذب ونفاق ، فان صفات هؤلاء الغرباء وأحوالهم تنافي صفات من هم بين أظهرهم ، فمثل هؤلاء بين أولئك كمثل الطير الغريب بين الطيور .

٣ ــ غربة الهمة وطلب الحق ، فان صاحب هذه الهمة غريب في أبناء الآخرة ، فضلا عن أبناء الدنيا ، كما أن طالب الآخرة غريب في أبناء الدنيا.

وبمسامرة الاحاديث النبوية الشريفة الواردة في صفات الغرباء نرى أميز صفاتهم هي : الصلاح عند الفساد ، والزيادة عن الغير في الايمان والتقوى والخير ، ومخالفة أهل البدع ، والفرار بالدين ليسلم لاهله ، والحب لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمها للناس ، مع الصفاء والخفاء

والبراءة ، فهؤلاء ـ كما يقول ابن القيم ـ هم الغرباء المدوحون المغبوطون ، ولقلتهم في الناس جدا سموا « غرباء » ، فان أكثر الناس على غير هذه الصفات ، فأهل الاسلام في الناس غرباء ، والمؤمنون في أهل الاسلام غرباء ، وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنة الذين يميزونها من الاهواء والبدع غرباء ، والداعون اليها الصابرون على أذى المخالفين أشد هؤلاء غربة ، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا ، فلا غربة عليهم وانما غربتهم بين الاكثرين الذين قال الله عز وجل فيهم في سورة الانعام :

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ » [1] .

فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هي الغربة الموحشة وقد قيل :

فليس غريبا من تناءت دياره ولكن من تنأين عنه غريب

ولما خرج موسى عليه السلام هاربا من قوم فرعون انتهى الى مدين على الحال التي ذكر الله ، وهو وحيد غريب خائف جائع ، فقال : يا رب ، وحيد مريض غريب . فقيل له : يا موسى ، الوحيد من ليس له مثلي أنيس ، والمريض من ليس له مثلي طبيب ، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة .

وخير أنواع الغربة غربة أهل الله وأهل سنة رسول الله ولذلك كانت هي الغربة المحبوبة المرغوبة المطلوبة ، ولذلك نرى العلماء الحقيقيين غرباء ، لقلتهم بين الجهال وهم كثير ، واللغة تعاون على فهم هذا المعنى فتقول : الغريب عديم النظير ، والغريب حق الغربة غريب في دينه بين الناس

(١) سورة الانعام ، الآية ١١٦ .

لفساد أديانهم ، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع ، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم ، غريب في صلاته لسوء صلاتهم ، غريب في طريقه لضلال طرقهم . وكما يعبر ابن القيم : « وبالجملة هو غريب في أمر دنياه وآخرته ، لا يجد من العامة مساعدا ولا معينا ، فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدع ، داع الى الله ورسوله بين دعاة الى الاهواء والبدع ، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف فيهم منكر والمنكر معروف».

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الغرباء الذين يفرون بدينهم من الفتن » .

ويقول أيضا : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

وفي سنة ١٣٧٣ هـ أخرجت للناس كتابا حققته وشرحته ، واسمه « كشف الكربة بوصف حال أهل الغربة » للامام شيخ الاسلام ابن رجب الحنبلي ، وتوجت هذا الكتاب بعبارة اهداء قلت فيها : « الى الغرباء بحقهم في دنيا الباطل ، نهدي هذا الحديث ، عبرة وتذكرة » وسميت هذا الكتاب « غربة الاسلام » .

ونرى الامام ابن رجب يذكر أن الغربة غربتان فيقول : « الغربة عند أهل الطريقة غربتان : ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة غربة أهل الصلاح بين أهل الجهل وسوء الاخلاق ، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُلبوا الخشية والاشفاق ، وغربة الزاهدين بين الراغبين فيما ينفد وليس بباق .

وأما الغربة الباطنة فغربة الهمة ، وهي غربة العارفين بين الخلق كلهم، حتى العلماء والعباد والزهاد ، فان أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم ، وهؤلاء واقفون مع معبودهم ، لا يعرجون بقلوبهم عنه، فكان أبو سليمان الداراني يقول في صفتهم : « همتهم غير همة الناس ، وارادتهم

الآخرة غير ارادة الناس ، ودعاؤهم غير دعاء الناس » . وسئل عن أفضل الاعمال فبكى وقال : « أن يطلع على قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره » .

وقال يحيى بن معاذ : « الزاهد غريب الدنيا ، والعارف غريب الآخرة » . يشير الى أن الزاهد غريب بين أهل الدنيا ، والعارف غريب بين أهل الآخرة ، لا يعرفه العباد ولا الزهاد ، وانما يعرفه من هو مثله ، وهمته كهمته .

وربما اجتمعت للعارف هذه الغربات كلها ، أو كثير منها ، أو بعضها فلا يسأل عن غربته حينئذ ، فالعارفون ظاهرون لاهل الدنيا والآخرة ، قال يحيى بن معاذ : « العابد مشهور ، والعارف مستور » . وربما خفي حال العارف على نفسه لخفاء حالته ، واساءة الظن بنفسه . قال ابراهيم بن أدهم : « ما أرى هذا الامر الا في رجل لا يعرف ذلك من نفسه ولا يعرفه الناس » .

واذا انتقلنا الى روضة الحديث النبوي وجدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يوصي عبدالله بن عمر بقوله : « كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل » ، ويقول في حديث آخر : « طوبى يومئذ للغرباء اذا فسد الناس » . وفي حديث آخر : « ان أحب شيء الى الله الغرباء . قيل ومن الغرباء ؟ قال الفرارون بدينهم ، يجتمعون الى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة » .

وقد كثر في كلام السلف مدح السنة ووصفها بالغربة ، ووصف أهلها بالقلة . فهذا يونس بن عبيد يقول : « ليس شيء أغرب من السنّة، وأغرب منها من يعرفها » . وهذا سفيان الثوري يقول : « استوصوا بأهل السنة خيرا ، فانهم غرباء » . وللامام ابن القيم أبيات أشار فيها الى الغربة منها قوله :

وحيّ على جنات عدن فانها منازلك الاولى وفيها المخيّم
ولكننا سبي العدو ، فهل ترى نعود الى أوطاننا ونسلّم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الاعداء فينا تحكّم ؟
وقد زعموا أن الغريب اذا نأى وشطت به أوطانه ليس ينعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة من العمر الا بعد ما يتألم

والصادق في غربته لا يضيره في حسه أو نفسه أن يبعده غيره غريب الاطوار ، فان الغريب المؤمن يحس ويؤمن بأنه على الصراط ، ويأنس بمسيرته وربه معه ، يؤنسه مهما نأى عنه الآخرون .

نسأل الله جل جلاله أن يجعلنا غرباء بحقنا ، أقوياء بايماننا ، ثابتين بيقيننا ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعا الى سواء السبيل .

الفهرست